حيدر حيدر

الوَمْضُ

قصص

• حيدر حيدر
• الـومـض

• جميع الحقوق محفوظة للدار

• الطبعة الثالثة 1998
• الناشــــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053
• الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
• لوحـــــة الغلاف : د. أحمد معلّا
• الإخـــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
• التــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص. ب: 4490
دار الحصاد: هاتف/فاكس 2126326

Copyright © 1998 by Haydar Haydar
© Ward for publishing and distribution

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, inclouding photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing from the publisher.

حيدر حيدر

الـــومـض

قصص

الصيد وحكايا البشر

الصيد وحكايا البشر

1

وراء المدينة كهل. منذ الدهور الأولى يعيش في كهف عتيق. التقيت به يوماً وأنا عائد من رحلة صيد. في وجهه سمات القِدم، وخلف بحر عينيه الصافيتين يقوم جلال السنين والمهابة.

ـ سلاماً أيها المحترم. قلت.

خيل إلي بأنه رمقني من زاوية عينيه وأومأ مجيباً.

كانت رحلتي مضنية. التعب أفرغ أعصابي من القدرة على المسير، والعطش نبّ في الحشاشة فأيبس العروق. سألته:

ـ ماء جدّي. ألديك مايبلُّ الريق؟

نحو أجمة سنديان صغيرة، رنا دون أن ينبس. تحركتُ نحوها فإذا بزمزمية يقطين مملوءة بالماء.

شربتُ كما يشرب صياد قُذف منذ الصباح ساعات مُمضَّة تحت الهجير، في سفوح ووديان غارت ينابيعها.

على صخرة كبساط مستدير استوى الشيخ. أمامه كتاب قديم مهلهل الصفحات، أصفرها. لكنه فسيح كالسهول راح يقرأ فيه. بعد أن شربت استلقيت قرب الكهف فشعرت بحرارة الأرض، وبالرهبة أيضاً.

ـ لماذا هو صامت؟

قالت النفس.

وقالت أيضاً: ربما كان من أولئك الذين حكت لي جدتي عنهم.

تذكرت حكاياها وأساطيرها القديمة التي كانت ترويها لي في العشيَّات: كهوف نائية مهجورة خلف مدائن الإنسان، نُحتت في الصخر، يعيش فيها بشر عافوا المدن. غادروا أجسادهم واكتفوا بالمنّ والسلوى ينزل عليهم من ضمير الغيب. يعمّرون آلاف السنين، أرواحهم تغادر العالم متى شِيء لها، ثم تعود كخطف البصر.

كنت أنذهل وهي تروي فأقول: جدتي أليسوا آلهة؟ إذ ذاك كانت تنهرني قائلة: حاشا... هؤلاء يا صغيري هم الأشخاص النورانيون.

أصمت مرتعداً من الخوف، لكنني أغتاظ لعجزي عن التمييز بين الله والنوراني.

خلال تيار الذكرى انتابني الارتعاد القديم نفسه. تمالكت وهمست: لابد أن يكون منهم!

ـ عمي الشيخ هل لك أرض هنا؟ سألته.

تخيلته يرفع عينيه الجاحظتين، ثم يشير إلى السهول والجبال المترامية ويعود مواصلاً القراءة في كتابه العظيم.

مذ كنت صغيراً وأنا أدسُّ أنفي في الأمور الكبيرة التي أسمتها تلك الجدة: الأمور المحرمة.

كثيراً ماكانت تهوّل لي العقاب، وعندما كنت أسألها:

جدتي: الإله. أليس بشراً مثلنا؟

كانت تستشيط غضباً، تتهمني بأن روحي شريرة، وأنني ولد أستحق الجلد على هذه الأسئلة.

ويوماً أحرجتها بنزقي الصبياني: جدتي. لماذا لاينزل الرب على الأرض ليرى فواجع البشر، يعيش بين العباد وينسف الشرور؟ وثبت بغتةً وسدّت لي فمي، ثم صفعتني على وجهي وراحت تتمتم: أستغفر الله. أستغفر الله. لاتؤاخذه يا رب. ثم انهمرت دموعها لكنها مالبثت أن احتضنتني وطوقتني بحدبٍ لافّة ذراعيها وثوبها الرث حول جسدي، وهي ترتعد فَرَقاً من صاعقة ستنزل على بيتنا وتحرقه.

في تلك الليلة اطمأنت جدتي إذ حمتني من الصاعقة، لكن الصاعقة نزلت فوق بيت جيراننا الفقراء، وقتلت أطفالاً ليسوا شياطيناً ولايثيرون أسئلة محرمة.

مع الزمن عوقبتُ بموت تلك الجدّة. ماعادت تروي لي حكايا وتعلمت أنا الصيد.

عندما عاود الشيخ قراءته مدثّراً بالصمت، انتابني الإحساس الإبليسي القديم، فصممت أن أحرج الشيخ بالحكايا:

الجبال كما ترى يا جدي قاسية هناك، تطارد الأرانب والوعول والتعبُ يطاردك، وعندما توشك على الهلاك يفجؤك الصيد، لكن الريق يكون قد جفّ واليد خانها التوازن، على العيون يتصبب العرق ويحرّها، وهكذا تضيع الطلقات في الفراغ البرّي. تصورت بأنني أشحتُ الصمت عنه إن لم تكن روحه قد غادرته. استهوتني الحكايا فتابعت: أنا صياد يا جدي من قديم الزمان. صِدْتُ، الأرانب والوعول والخنازير، أطلقت رصاصي على الذئاب

والثعالب والنمور، ولم أوفّر طيور الحجل والسنونو، حتى الحساسين قتلتها، على قدمي هاتين مشيتُ آلاف الكيلومترات، لحستُ الندى وأكلت حبات البطم الحامضة، وفوق نتوءات الصخور تحت الشمس الحادة هويتُ من الإجهاد.

جلدي شوتهُ الأشعة فاكمدّ من سفعها، وأطبق الليل عليَّ في رحلات بعيدة، فكنت آوي إلى جحور الثعالب، أتكور داخلها وأنام.

رمقته وأنا أداعب ذرات التراب الساخنة ثم أفتّتها. كان صامتاً كالحجر: لماذا يصمت؟ قلت في سري.

كان الكتاب مفروشاً فوق ركبتيه، وقد تقرفص كمكبل وُتِّدت إليتاه في استدارة الصخرة، فبدا منغرزاً هناك يشاهد المسافرين بلا حراك.

كانت نظراته مثبتة في وجهي فسألته: أيها الجليل هل لك بسيجارة؟

استوقفتني إشارة دهشة خيِّل إليَّ أنني لمحتها بين حاجبيه فانكفأت. أشعلت لفافتي، لكن نظراته ظلت مصوبة إلى صدري. كالمأخوذ تابعت اعترافاتي: تحوّل الصيد هوساً. رسا في وهاد النفْس. صار حياة ومصيراً. المهم أن تقتل وينتثر الدم، الصياد لايهمه إلا أن تشرق الشمس فوق مذابحه. ألم تجرب القتل يا جدي ولو لمرة واحدة؟ صدّقني ليس هناك أروع من منظر حي تُستل منه الروح وهو ينتفض فوق الأرض. اسمع هذه الحادثة المثيرة، ولتقل ماتشاء عنّا نحن السفاحين الذين التبست عليهم الأمور المحرمة فتاهوا في بوادي الرب يقتلون بلا رحمة:

ذات فجر ندي هِمتُ وحدي في الجبال الوعرة. وكما يحدث في جميع الرحلات: التعب، العطش، القيظ الحارق، التعرّق، ومن ثم اليأس.

حتى الغروب لم أطلق طلقة. كانت البراري مقفرة لكأن أحياءها هجروها. فجأة رأيتني أعبر مضيقاً. على جانبيه تسامقت صخور مسننة، وكان قلبي يخفق، أحسسته يكاد يخرج من صدري، وكانت الأرض تلتهب تحت قدمي.

لست أدري أية لعنة رمت ذلك الأرنب في طريقي. أرنب صغير وثب من أجمة ثم مالبث أن توقف وغرس عينيه في عيني: لماذا تحدق فيّ ياسيدي العظيم أأنا آثم في شرعك؟ قلت ذلك في سري.

لاأدري سوى أن ماحدث كان ومضة. قبل أن يهرب الأرنب سددت نحوه وضغطت الزناد. تدحرج الفرخ فوق الغبار ودوَّى الوادي. مرة أخرى انهمرت الطلقات على جسد الصغير وهو يختلج.

مرة، ومرة، ومرة. وفي دوار المحموم المُستثار، المُرمى وحيداً في جحيم البراري، رحت أطلق حتى تمزق الجلد واللحم وهمد اختلاج الأرنب.

لن أنسى ماحييت تلك الكوى الأرجوانية في جسده الممدد الخامد. أتعرف المسافة بيني وبينه؟ كالمسافة بيننا الآن!

ـ قل لي سيدي هل لأمثالي غفران؟

في وجه الشيخ لم تختلج عضلة. بدا كأنه اعتاد أمثال هذه الحكايا. لم يتزحزح، كأنما ملايين القصص تُروى له كل يوم ثم تعبر كالصدى، والشيخ سامرٌ وعزاء المسافرين منصت لايريم.

سألته فجأة: سيدي هل أنت في هذه الضواحي من أمد بعيد؟

تراءى لي رأسه يهتز إلى الأمام هزات رتيبة ثم يعود إلى ثباته الأولي. قلت لنفسي: ربما من قبل أن أولد وأتعلم الصيد.

وإذ استمر في قراءة كتابه القديم همست: قد يكون عن حكمة

الأقدمين علّمه الكثير عن أسرار البشر، وهو هنا يزود الغادين والبادين بالماء والحكمة. ولكن لمَ هذا الصمت العجيب؟

بعد أن أشعلت لفافة أخرى قررت إثارته بأن أبوح بالسرّ الذي حفظته لنفسي سنين طويلة:

الأرنب الذي قتلته يا شيخي كان إنساناً. قتلته للتشفي، ولم يحدث ذلك في برية إنما في باحة مُحاطة بالأسلاك الشائكة. أكثر من ألف بشري شاهدوا عملية القتل.

في يوم قائظ كنت سجيناً في قفص من الصفيح، وكان القفص محاطاً بمئات الصيادين وقد تأهبوا ببنادقهم المحشوة ينتظرون الإشارة ليطلقوا عليّ في لحظة واحدة.

كان الحرس يعتزمون قتلي من خلال الصفيح وبينهم كان قاتلي سيضيع.

هل تتصور أن تنهمر آلاف الطلقات على جسدي الصغير ثم يقال: وارَينا الكلبَ في جحره؟

هيه... هيه. كم يستحق هذا القهقهة: آه لو تقهقه معي. يالصوت المطر والبرد يقرع الصفيح ثم اللحم. موسيقى. أليس شجياً إيقاع الموسيقى.

في تلك اللحظة الراعشة تذكرت أغنيات أمي عن الحب والمطر، والآن أتذكر أنني نجوت وانتحرت أمي.

إيه... ذلك اليوم ما أرهبه، لو شهدته أيها المحترم!

على وجه الشيخ لم أر أيَّما علامة. تبدّى وجهه الأصمّ وقد حرثه الزمن بالوقار والصمت واللامبالاة. وللحظة لمحته كجبل معمم محايد يطل على الدهور من خلال حكايا الناس، بينما أنطرح أنا تحت قدميه كقط مذنب.

تمتمت: آه ما أتعس البشر!!

ورغم نمو إحساسي الخاطئ بالاختيار حول صلاحية هذا النوراني حكَماً، إلا أنني لم أتوقف عن الاعتراف.

نزعت جزمة الصيد، وقد جرحت قدمي فرميتها قرب البندقية:

ماأذكره يا سيدي المبجل بأن اليوم كان يوم هياج. الشمس في سمت الظهيرة والنفوس تصيح صيحات الثأر، ورايات عبس وذبيان تخفق في الريح تطلب الدم، والقمصان الأرجوانية تغطي أجساد الفتية المقتولين على أديم الساحة. كانوا مغمضي العيون لايتنفسون.

تعالى الهياج والهرج هزجاً كأعراس الجن. في الشوارع بين الغابات ومن البيوت الآمنة. أصوات الباعة والأطفال والنساء الحوامل. طلقات تختلط بالأنين والسقوط على الأرض. والدم يطلب الدم، والرايات مشرعة. تداخل الموتُ بالنجاة. المصادفة صارت مهراً أعمى يجمح ويدوس. وأنا أنتظر دورة الفلك.

هل ثمة جدوى من وصف المشاعر وأنا أنتظر في قفص الصفيح مرور الدقائق الخرساء؟ هل كانت الدقائق تمر؟

كان الزمن معلقاً على جدار القفص، وكان معي الفتية الأحياء الذين صادهم القدر. لقد بدوا في ظل الشمس حجارة حوّلها الرعب إلى دُمى من الشمع عديم اللون.

رويداً رويداً خفق خوفي، متمهلاً، متسارعاً، ثم مالبث أن سكن كالحجر في قعره الخاص.

التذكر: الولادة، الأصدقاء، الحب، طفو الحياة على سطح الرعشة.

ثم النسيان: غابة حزن معتمة. طوف فارغ فوق بحر من سديم مغلق الأفق. ثم الدوار.

مرة أخرى التذكر: أمي. فتاتي التي أحببت تحيا على أمل عودتي. أشياء أخرى تعبر خطفاً كالبروق. ثم النسيان.

الصفيح لماذا لم يُثقب بعد!. لينته هذا الشيء التافه. مازال الهياج في الخارج والدم لايرتوي وثارات القوم لم تخمد. مازلت حياً. أتلمس جسدي. الدم يتدفق في النبض. أهاجر مع الذكرى. ولكن مامعنى هذا الجنون الوحشي؟

مأأتعسنا جميعاً. البراءة، الإخلاص لتبني مجداً للآخرين.

هاأنت تموت وحيداً كذبابة تُسحق في حيِّز ضيق. أمي الآن بماذا تفكر؟ هل تعرف لماذا أموت وهل توافق على موتي؟

وينسحب النسيان كفناً أسود كهذا اليوم، فوق نعش فارغ: مات الكلب.

كلُّ الكلاب تموت هكذا.

إيه. ياللمجانية التي تحدث فيها الأشياء، بل يا للتفاهة.

أخيراً دار الفلك. تزحزح الزمن عن جدار القفص فرماني في الساحة وفي يدي بندقية محشوة بالطلقات، وعلى مسافة متر واحد كان الإنسان الذي قتلت.

الرصاصات كلها أفرغتها في جسده. كان بإمكاني أن أقتل جميع البشر بلا رحمة. جميع البشر بلا استثناء. أجل جميع البشر. أتفهم؟

أرهقني الاعتراف وأنا أتملى هذا الشيخ الصامت. كان الضباب يعمم الجبال والغابات البعيدة، وأسراب من الغربان تنعق عائدة إلى أشجار مبيتها، وبدأ الأصيل يزحف متعباً فوق السهوب.

كان النوراني مايزال ينهل الحكمة من سفر الوجود. يُسأل فلا يجيب. يحط المتعبون في رحابه، ينفضون جيوب نفوسهم وهو يستمع. وددتُ أن أصرخ في وجهه: العقاب، هل من أجله يولد البشر؟

لكنني كتمت صرختي وقلت: لاتملّ فأنا وحيد تعس أمضّني التعب والصيد والبحث عن يقين، لهذا أروي لك!

2

قلت للشيخ: بعد أيام من حدوث معجزة نجاتي، انقطعت عني الرسائل، ثم فجأة وصلتني برقية تطلب حضوري فوراً. سافرت إلى بلدتي الصغيرة، وهناك صعقني النبأ. أتعرف كيف ماتت تلك التي كان اسمها أمي؟ خيل إلي أنه يرنو إلي بعين سارقة مهتمة فشرحت:

خرجت إلى ساحة البلدة ومعها سكين وزجاجة. ووقفت في الوسط ثم كشفت عن جثة شعرها البيضاء. بسطت ذراعيها رافعة رأسها باتجاه السماء وصرخت: لقد قتلوه، ومزقوا لحمه الطري الصغير بالرصاص.

كانت أمي يا سيدي ورعة تتلو الصلوات، وتبجل جميع القديسين والنورانيين، وأذكر أنها كانت ترنّم لي مع أغنيات المساء هذه الجملة:

«إذا وقعت يابني فادعُ الله يحضرْ. اندبْه في الضيق ينقذْك من المكاره. إنه غفور رحيم وسعت رحمته السموات والأرض».

لكن الفاجعة أفقدتها الصواب. لقد جدّفت يومها: أيها الغفور أين أنت؟ لماذا لم تنقذه. أي ذنب ارتكب حتى يموت، أي ذنب؟

وانهالت تمزق ثوبها وتطعن جسدها حتى بعرت من آخر قطعة ثم بترت ثدياً وقذفته نحو الأعلى: خذ حليبك. خذ أطفالك.

وقطعت الثدي الآخر ورمته في خندق قريب فتناوله كلب مقع حمله بين فكيه وعدا به نحو المقبرة. وراحت تبصق لعاباً مغمساً بالدم

تحاملت فأمسكت زجاجة البنزين ودلقتها فوق جسدها. ثم أوقدت اللحم العاري.

كانت أمي قد تحولت شيئاً آخر بعد الحريق. كومة سوداء ذات رائحة كريهة أمام أعين البشر عندما اندفعت امرأة خاطئة شاقّةً جموع الشهود، وارتمت فوق الجسد الخلاسي الذي خمد عذابه.

فشلت المرأة الخاطئة في إنقاذها. لقد وصلت بعد فوات الوقت. لملمت بقايا من كانت أمي وهي تبكي عليها، ثم دفنت تلك الرمّة من الفحم. لم يمش وراء الجنازة غير الكلب والقطة التي ربتها أمي، وأفتى الحواريون التُقاة: محرّم عليها الدفن والصلاة لأنها خالفت الرب وقتلت نفساً حرم الله إلا بالحق، وذِكرُها ملعون في العالمين.

هذا ماقصَّته عليَّ المرأة التي أرسلت إلي برقية الحضور، وأخبرتني بأن الناعي جاء يقول لأمي: رأيته بعيني يموت في مجزرة الضحى. ثم روى لها بأنه هرب هو من الأسلاك الشائكة خلال المذبحة بعد أن رآهم يمثلون بجسدي وأجساد رفاقي. وإثر هربه لم يكن يُسمع إلا دوي الرصاص. وقالت المرأة بأن أمك هُرعت نحوي منفوشة الشعر مشقوقة الصدر وكأنما أصيبت بمسّ وراحت تصرخ: ماري. ماري. لقد قتلوه. الوحوش لاترتوي من الدم. صارت الصحارى نحاساً أحمر والفجر كالشفق من الثارات. ويلاه. ابني لماذا يموت؟

كنت أستمع يا سيدي إلى ماري وهي تنشج، وأنا راكد كمستنقع. سمعتها تتمتم من خلال دموعها: أمضيت الليل بجانبها أواسيها. كان ليلاً مرعباً مليئاً بالأنين والهذيان والأصوات. وحتى طلوع الفجر ظلت تهلوس كلمات مبهمة.

وقلت لماري. إيه. صادها الموت ونجوت أنا. كفى. كفى.

وهكذا أقفر بيتنا يا سيدي. جللته الفاجعة فغدا أعشاشاً لبومات الليل وموطناً للريح والنسيان، وأذاع الشهود بأن أرواحاً شريرة تقطنه وأن شبح عجوز شمطاء محروقة الوجه مقطوعة الثديين يجوسه في الأماسي، وأن ذلك الشبح لايني يعوي بصوت حيواني لايفهمه أحد. ابتعد الأطفال عن البيت ورتع العنكبوت في النوافذ والكوى. كما سطا الجيران على الدجاجات، ثم صادوا سرب الحمام الأبيض الذي ربته أمي. مع الزمن تهدّم البيت ويبست شجرة التوت الوحيدة، وفي البراري هامت القطة التي صارت وحيدة فتوحشت وراحت تلتقط الحشرات والعصافير والصيصان الميتة.

3

هكذا منذ البدء ندور كالأفلاك في مدارات التعب. بشر أكثر عدداً من النجوم نخضع لقانون جاذبية الأعظم. تنشدُّ رقابنا نحو الملأ الأعلى. تتوتر صبواتنا باتجاه الشيء العصيّ على الفهم، وأحد ما لايدرك ماقاله السيد الحلاج: «مافي جبّتي إلا الله».

بقي الصدق الأعظم والكذب الأعظم متجاورين، ووحدي مازلت أعترف.

لكن الكهل صديق الرياح والخائفين مايزال هو الآخر ينتشي بحمّام الصمت. يهضم حكمته ولايفرزها. والتائهون يتكاثرون كجراد أصياف الجوع. متعبون من الشمس والحصاد وعتل الصخور وحمل البنادق، يحصدون أنفسهم والآخرين، ويدخلون المخادع المحرمة. يشهدون الزور ثم يرتلون الآيات. يتواكب نسل التقديس والتمجيد للباري، والدود عن نخر الخلية لايتوقف.

وهاأنذا عن الجميع أعترف.

حزّت رقبتي حقيبةُ الصيد. سللت رأسي من علّاقتها ورميتها قرب الجزمة والبندقية وحزام الخرطوش وفيها زوادة رحلتي.

مرة ثانية استيقظ عطشي، قلت للكهل: أتسمح لي أن أشرب من يقطينتك للمرة الأخيرة؟

تخيلت أنه أومأ موافقاً فنهضت وشربت. وسوست النفس: ألا يكفي الماءُ المتعبين. لماذا الحكمة؟

وتابعت حكاياتي: شقية حياة الصيادين كما ترى يا كهلي المحترم. مليئة بالمفارقات العجيبة، وأكثرهم لايجرؤ على الاعتراف، يبنون أقبية من الكلس الهش داخل نفوسهم ويدفنون فيها الأسرار. في تلك السراديب المظلمة تكمن حقائق الإنسان الذي لايحتاج التبرير ولا الحكمة. هناك ترى الدهشة والحب. القتل ومدائن الرغبات التي لاحدود لها. وهناك يرتفع الكذب الأعظم والصدق الأعظم. وفي تلك المدائن ماري ليست خاطئة.

خلف تلك التلال ذات الخضرة الأبدية التي تراها، تنام بلدتنا الصغيرة. فيها ولدتْ تلك الخاطئة ونمَتْ كشجرة غضة. لرشاقتها سمّوها الوعلة، ولحسنها الأنثوي العذب هام بها الرجال المتزوجون وعبدها فتية المدارس. رأوها وهي تغنج على طريق العين فاعترضوها، وشاهدوها ترقص في مراسح الأعراس والأعياد، حارَّة موردة فتشهّوها بشبقٍ أودى بهم إلى نزاعات لاتنقطع.

كانت آلاف العيون تتفرس في بهاء وجهها العقيقي، وفي الأحلام نالوها دونما إذن أو رغبة منها.

مع الزمن أحس الأب بأن ابنته مهددة بالقطع. فالفؤوس تدور حول بيته. غضب الرجال الجنسي متوتر، وفي وجه هذا الشبق المتوحش لن يقف حائل. فقرر أمراً.

كان النقص قد تلوّى في خلاياه هو الآخر، وفار الشبق. داهمه الدود الناخر والشهوة صارت رمحاً، ثم انقلب الرمح أفعى ولولبت الأفعى لسانها.

عن الخروج حُجِرت ماري فافتقدها الجميع، وسرت همسات. انتشرت إشاعة وتنبؤات، وقالت حيزبون مقربة من الأهل:

ماري منذورة. هبط الملاك على الوالد وهدده إن زوّجها ليحرقِنّ زرعه ويجفّفنَ ضرعه ويقطع ذريّته عن سطح الأرض! قِلة من الناس صدقت النبوءة، وظلوا يرحلون في أحلامهم إلى مخدع ماري السري.

ومرت أيام وشهور، والفتاة ماتزال رهينة. أصاب البلدة محلٌ إذ غاب عنها المطر، وقاظت نهاراتها ولياليها فنضبت الينابيع وذوت الخضرة الدائمة. وشهراً وراء شهر هاجر كثير من الرجال إلى ماوراء البحار وكان جوع شديد كافر.

ذات مساء سرى في البلدة نبأ غريب: ماري حُبلى!

هجمت الريبة إلى ضمائر الناس فهزهم النبأ، ناسهم الصدق والكذب بين مداريه، وقالت الحيزبون في بيوت السمّار: نفّذ الوعد. وعد الملاك حق. ألم أقل لكم بأنها مخطوبة للملائكة منذ الطفولة؟

ورفض كثيرون البدعة: محال. حُبلى من الريح؟

تذمر رجل ثم تجرأ: الملائكة لاتحبل. في الأمر سر!

وردد معه آخرون: علينا أن نكشف السر.

وفي أمسية اجتمعت البلدة وقرر عقلاؤها معرفة الأمر.

أرسلوا وفداً عنهم إلى بيت الوالد، لكن الوفد عاد مطروداً. قالوا بأن الأب شتمنا وصاح في وجوهنا: ابنتي طاهرة ولن تنشروا من بيتي فضيحة. ثم وسم أهل البلدة بأنهم كلاب وخنازير تريد الولوغ في شرفه.

بين الغضب والهياج وفوران الدم نوقش الأمر، وأخيراً قررت الجموع اقتحام بيت الأب.

في ليل عابق بالنجوم والأسى، تحركت جماهير أغلّها الهياج. حملت فؤوسها وعصيها ومشاعلها وتوجهت نحو البيت المعزول عن البلدة.

ـ من اللصوص؟ صاح الأب.

ـ لسنا لصوصاً. نريد المرأة الخاطئة! قالت الجماهير.

ـ أنجاس وشريرون. اغربوا عن بيتي.

ـ أرِنا زوجة الملائكة والريح!

ـ أعطنا ماري يا يوسف الكذاب.

وعلى الباب وقف رجل ضخم صلب القسمات ملفوح الوجه، عيناه تلمعان كالنمر وفي يده بندقية صيد. أطل على الشهود وزأر:

ـ ماذا يريد قضاة العالم مني؟

خفق الصمت. أغلّ الكتلة الآدمية، وتمددت السكينة فوقهم فانكسر الهياج.

تعالى صوت الرجل: بغيتكم يا ذئاب الغاب؟

احتضر صوت ناء: سؤال الفتاة عن بعلها!

غصّ صوت من داخل البيت: اسألوه هو!

هتف الأب ممزّقاً خداع السكون: غرستي زرعتها صغيرة وربيتها حتى نمَتْ وأثمرت. من أحقُّ بثمار الشجرة من غارسها؟ عقلت الدهشة ضمائر الحاضرين. قال الذهول: أنا غابة الأسرار. حكاية سندباد طاف جزائر العالم واستلقى بين قشرة الحياة ونواة الرغبة. وتابع الأب: من منكم لم يكن راغباً بها يا أبناء سدوم. إليَّ تضرعتم أن أكون قديساً يقدم الموائد الشهية، ولم تطلبوا من

آلهتكم إرواء العطش والجوع الساكنين في خلاياكم.

في ظلام الأرض تِهتُمْ بحثاً عن الرضى والقناعة ولم تخاطبوا أنبياءكم يوماً عن حاجاتكم. عن النقص في الضلوع وتشنجات الليل المخنوقة واستمرار الآثام فوق الأرض. بدأ صوته يعود إلى طبيعته: تذكروا تشهِّيكم السرمدي لزوجات وبنات جيرانكم وأصدقائكم، تذكروا الموت الصاعق في منتصف الزمن قبل الأوان. هل تساءل أحدكم يوماً لماذا الخلية البشرية معطوبة يقضمها الدود الجائع منذ الدهور الأولى؟

وعاد الصمت وشاحاً يكفِّن الناس والليل. تمتم صوت أحد الحكماء: صادَ الأب ابنته.

تبعه صوت إلى جواره علا أكثر: الزاني. اقتلوه...

وعاد الأب إلى هديره المتوحش: عودوا إلى جحوركم ياحشرات الأرض. برّروا أفعالكم أولاً ثم شكلوا المحاكم. صيروا قضاة حماقاتكم السرية قبل أن تطاردوا الآخرين بهياجكم البربري. كل نفس تحمل وزرها وحيدة في عالمها. بالمعصية والرغبة أقسم: من يتقدم منكم مقتول لامحالة.

قال صوت: أحرقوا الفاسق. سيرجمنا الرب بالحجارة والصواعق إن تركناه.

وقال آخر: هذا الرجل يسفِّه آلهتنا.

وندد آخر: اثأروا لرغباتكم. انتقموا للعدل الرباني. عاش الرب وليسقط الزناة!

وسافر الصمت متعثراً في دروبه الخفية. ثم تموّر الهياج والغضب ليكبّل الرجل الوحيد. أحس بأنه سيُنهش وأن سورة الذئاب ستفترسه، فقال بصوت عادي فيه رنّة من الهدوء والأسى: قد أكون الآن في المصيدة. لكن كان مايجب أن يكون، وفي العالم

أيها السادة ماهو أعظم وأفظع، والخطيئة بعمر الكون مذ وجد الإنسان. جميعنا صيادون منذ قابيل. حمقى ومبعثرون فوق سطح الأرض، وقليلاً مانميز الخير من الشر. تلك إرادة الخالق وضياع العقل.

تنمّر الرجال فانقذف مشعلٌ في حديقة البيت تبعه صوت:

حكمنا عليك بالموت أيها الزاني!

صرخ الأب مذعوراً: وأنا حكمت على اثنين منكم يا حمقى الزمان. وارتمى مشعل آخر خلف بوابة البيت أعقبه هرج وصيحات مزّعت هدوء الليل، وتحركت الكتلة. خطت في عين الأب فصارت قدره الأخير.

في أطرافه تمشّى الموت هادئاً عندما انقذف مشعل وارتمى بين قدميه وندت صيحة: الموت مطهرك. مت لنحيا! ومن داخل البيت صرخت الفتاة: أنا فِدْيتُه!

وإلى يساره سقط مشعل آخر ثم إلى يمينه فلم يتزحزح.

أضيئت عيناه بشعاع غريب. قتل ووجل ورثاء، هي كل ذعر الأرض وخيانتها، استلقت في المسافة مابين عينيه والحشد.

قال العِقاب: أنا حصاد الأعمار في مآتم البشر المتواصلة. ثم سقطت مشاعل خلفه وطوقته النار.

وانبهق التذكر: ماري غرسة الشهوة ولدت مني ثم عادت إليّ. استرددتُ شهوتي. هذا ماحدث للوط في زمن مابعد الطوفان. جدي اضطجعت معه ابنتاه، وأنا اضطجعت مع ابنتي، وهاأنذا أُعاقَب بإرثي القديم. آه. سال الدم في عروق الأجيال حتى وصلني. ياللمهزلة المؤسية! وحضر النسيان: غيمة السديم والغياب خلف قشرة الزمن الحي.

ثم التذكر: ماري مرة أخرى. خيبة هذه الجماهير. النشوة التي انقضت. رضاي وكهف عمري في الليالي الباردة.

النسيان أيضاً. والحشد مازال يدوي كأزيز نحل في يوم ساخن. مشاعل وأصوات بلهاء تقرع ليل الاطمئنان والبندقية في يدي ستقتل اثنين. اثنان لاعلى التحديد سيموتان بحماقة ومجانية. خسران البشر المستمر. صيد دائم ولاشيء آخر.

ولطمه مشعل في وجهه فاحمرت عيناه وسالت دمعة: وداعاً يامارْيّاي. يا حياة كانت هنيئة. وضغط الزناد الأول. ندت آهة واختلج جسد ثم تهاوى. انذعرت الغوغاء وراحت الفوانيس والمشاعل تتحطم، وتعالى الهرج والضجيج... آهة شيء ثقيل يسقط: قُتِلتُ. يا موتاً يكفن حياة مثقلة. وهجمت الزحوف. وهُرعت الخاطئة.

ـ احرقوني معه.

على الأب والزوج ارتمت لتحميه. تشبثت بثيابه وغطته بجسدها.

ـ اقتلوني أنا أيضاً.

ـ أبعدوا الزانية.

ـ كان حياتي ولباسي أيّها القتلة.

وأمسكوا بها. نزعوها عنه.

ـ اهربي يا ماري. صاح الرجل الذي يحترق.

وجرّوها.

انفرد بها نفر منهم في حديقة البيت تحت ستار أيكة مظلمة، بينما أنهى الآخرون صيدهم.

كان الكهل قد غفا الآن. أتعبته الحكايا فغاص في جبّ

نورانيته. نهضتُ واقفاً والنفس ترنم: أيها اللاشيء العظيم توارَ في صمتك الدهري فأنا راحل.

رميت طرائدي وعدّة صيدي قرب بندقيتي. ورحت أغذ السير وحيداً فوق دروب الأرض، مترنحاً بين الظلمة والنور ورياح اليقين المزعزعة.

دمشق 1968

صيف محترق

صيف محترق

«في حزيران الماضي أحرق شاب وسيم مصاب بانفصام في الشخصية نفسه بالبنزين على إيقاع موسيقى زنجية في غرفة مغلقة بعد أن ترك لأمه وصية بسيطة ومبهمة: «العالم مليء بالأخطاء والإنسان لايستطيع أن يفعل شيئاً. إنني أموت لأنني لاأصلح».

1

ومرّ عام. وليس مثلنا من يتقن رصف الأيام. ثيابك الملفوحة، ماتبقى منها، تنام في صندوق العرس. وفي مثل هذا اليوم هطل المطر صيفاً.

ولم يكن لي سواك من مخلوقات الرب، وعجوز مغربة العمر تُمضي في الصلوات الليلية زمانها الأخير.

ـ «أصحيح أن ذلك قد حدث فعلاً؟».

الحديث من الرعب والمفاجأة بحيث يوقف فعالية الذهن، أكاد أقول: يدَع الحجارة تنتحب.

وما انتحبتُ أمام الحضور.

ـ «لماذا؟».

لقد متُّ في اللحظة التي كان المطر ينسكب فيها، وبالمجانية نفسها.

انتحب المطر عني بما فيه الكفاية، وقال المعزّون كلماتهم التقليدية بإجلال مفتعل، وسخف وراثي أصيل، ورفض الشيوخ أن يصلوا: المنتحر مجوسي لاتجوز عليه صلاة الجنازة، وتحت سماء دمشق العذبة الحزينة، شيّع الفقراء وحدهم نعشَك الذي لم يُصلَ عليه.

ـ «كيف حدث ذلك؟».

2

من يوم إلى يوم ينسى البشر همومهم. كل فجر حابل بألم جديد، فكيف بالعام يزحم عاماً آخر؟

هاهم يسبِّحون باريهم، ويتاجرون، يصفقون في باحات السيرك مأخوذين بالضحك والتثني. أما أنا فلم أنس كيف حدث ذلك.

الكوابيس المفزعة تتوالى كطيور سود متوحشة في ليالي الوحدة، وزفير الحريق ينمو ويتعاظم، مغطياً حدود الأفق، والناس نيام.

ـ الحريق... الحريق. وتوقظني العجوز ملهوفة مضطربة وهي تتلو آياتها القديمة، تسجد وتدعو، وتسافر الأيام.

في الأيام الأولى حضر بعض الناس. صحاب وجيران وأقارب. ناح من ناح حزناً ورياء، تمتموا أدعية وتراتيل حفظوها عن أجداد أجدادهم، ثم غابوا. ومع الثياب المحترقة والعجوز وأشباح الفجيعة، بقيتُ.

وامتطى الزمن مهرهُ وولى.

كلما حاولت التذكر والدخول في شبكة إيقاع خطوات الموت يجيبني حاجزُه الأصم: لقد مات وكفى!

ـ «مات محترقاً في يوم مطير».

كان ذلك مفزعاً حتى الدهشة، غريباً كولادة امرأة تحت قصف القنابل.

ومع أنني كنت أسخر من صلوات العجوز الليلية، وآخر ماكنت أفكر فيه: الإيمان. إلا أنني في لحظة الاحتراق، صحتُ بوجع أم تُثكل: نجِّه يا رب وأنذر نفسي إليك!

ومانجوت.

ومع مرور الأيام ازددت يقيناً بأنني ماربيتك كما ينبغي. كنتَ ناقصاً على نحو أوحى إلي بأن دمي وحليبي كان مشوبين.

3

من التاريخ في الإنسان. من الرجل في المرأة، ومن شهوة الاغتصاب الفجّ ولدتَ.

كان وجهك رائعاً كالبدر، وقامتك سامقة كنخلة برية في واحة، ويوم خطرتَ أمام صبايا الحي صِحْنَ بنشوة سرية: ابن الحرام ما أحلاه.

ونَمَوْتَ جسداً بديعاً.

في ليالي غربتي الروحية، أذكر كيف كنت أزحف إلى فراشك. أشم رائحتك، أمرغ وجهي فوق جبينك وخديك وشعرك وزغب رقبتك. أركع قرب السرير حتى مطالع الفجر وأنا أرنم لك أغنيات ربيعية، وأنتحب ضراعة لتشبّ.

وفي الصباح تدعو ربَّها جدتكَ العجوز كي تكبر وتبقى لنا لتصير ضابطاً ملء الدنيا وملء الفرح.

في العيون لم يبقَ دمع. استلّه الزمن والسهرُ عليك. لذا لم أبكِ في حضرة الموت. وبين الشفاعة والصلوات رحتَ تورق وتخضرّ.

في كل مكان كان حب إلا هنا. وفي كل مكان كانت براعم الحرية تتفتح إلا هنا، وبيني وبين والدك لم يحدث اختيار، وكنت ثمرة القسر الفجة.

قهراً زوجوني له، وكنتُ في الرابعة عشرة. وفي ليلة شاحبة تمخض رحمي بك اغتصاباً.

أقول ذلك وأنت الآن كومة من لحم وعظم محترق، رِمة في قبر مغلق وقد مر على انتحارك عام كامل. ومن أقصى الأرض إلى أقصاها ليس مثلنا في البشر من يرتب الأيام، من يصنع منها توابيت وأسرّة لنسيان الماضي.

ـ لماذا جئت قبل الأوان. ولماذا خارج هذه الأرض تولد المواليد في أوانها؟

كان أبوك عاجزاً عن نيل بغيته على نحو سوي وصحيّ، كان وحيداً ملفوحاً بالحزن والرغبة. تشهّاني وكنت تويجة في طور الفرح الأول فاغتصبني تحت راية الشرائع لتولد بهيّ الطلعة كالشروق، حلواً كأولاد الحرام كما يقول عامتنا.

ـ «هل كنت مذنبة لأنني لم أستطع أن أعطيه غير جسدي؟».

أستطيع أن أتخيل الحريق كيف دبَّ إلى جسدك، كيف تنامى

زهوراً صفراء مفترسة وراح يرعى الجسم الحبيب الذي خرج مني. أستطيع أن أسمع تأوهاتك والحشرجات المكتومة. والحريق ينسّ في الجلد فتتلوى يا شجاعي العظيم بينما الناس يسبّونك هازئين، حفاظاً على حياتهم المغتصبة وقصورهم التاريخي.

«ما الذي بقي لهؤلاء الأحياء في أزمنة القهر؟».

في اللحظة نفسها، والدخان يحجب جراح العالم، مطفئاً آخر ذكرياتك عن الناس والحركة، انهمر المطر على السهوب والغابات، غمر الطرقات والخنادق، سحّ على زجاج بيوت الأحبة والهاجعين، وفوق خيام المشردين والجنود.

مطر... مطر... وحريق. موت وبشائر. سر الحياة الأعظم الذي يشي بالروائح فقط.

لكن الذي مات لايعود.

4

ـ اسمعي. يجب أن تعودي إليه.

ـ لكنه هجرنا وغادر الوطن؟

ـ سأبحث عنه في كل بقاع الأرض وأعيده.

ـ كلانا لايحب الآخر!

وتصرخ كأنما الحريق يشبّ في غابات نفسك آنذاك:

ـ لكن أنا من يدفع ضريبة الفصام.

وأصمت تقديساً لألم نحن غرسناه فيك.

أيام قاسية وحارة. طواف خارج الحدود، بحثاً عن ذلك المهاجر الحزين. تلقاه. تتضرع إليه كي يعود فيرفض ويمضي بعيداً.

وخائباً جريحاً، ترجع.

أيام تمضي. قراءات وموسيقى وخمر. موسيقى الزنوج المتوحشين المقهورين، موسيقى الغضب والجنون في ألاباما والمسيسيبي، داخل غرفة مغلقة أنت فيها وحيد ومحاصر.

تلك كانت هوايتك قبل أن تلتحق بالجيش.

ـ هل قلت المطر؟

في عصر الحزن والموت واللجوء، يهمي المطر. يعيد للأرامل ذكرى أزواجهن، للعشاق رائحة الموت في الحدائق والجبال، للمغتصَبين أمل العودة ورائحة المزارع النائية. أما أنا فيذكرني باللحظة الزمنية التي نازعتَ فيها داخل غرفة مقفلة، اللحظة التي تحملت خلالها ثقلَ آلام الأرض مجتمعة، ثم انطفأت.

لماذا هنا بالذات من أقصى الأرض إلى أقصاها، الزمان المحزون يقذف لقطاءه الناقصين إلى الوجود؟ ولماذا نحن في وطن مكسور الضلع؟ سألت الطبيب يوماً عن حالتك فقال مرض وراثي ينتقل عن طريق الدم. نوبة الانفصام تستمر خمس دقائق فقط، يشعر فيها بالاضطهاد وكراهية العالم، فينعزل عما حوله. تحدوه رغبة طاغية في الانتحار وإذ تمر الدقائق الخمس إما يعود سوياً أو ينتهي.

ومرت أكثر من دقائق خمس.

ساعات وأيام وشهور وسنوات. الصيام والصلوات. التشهي والصخب والتهم. ثم نسيان المطر والحرائق، والخيام المنسيّة المرميّة تحت الريح. ومانزال غفاة.

5

كنتَ مغبوناً في عصر ذلك اليوم. على ثيابك غبار وفي عينيك هموم، ولم يكن معك سلاح.

ـ حمداً لكل شيء على سلامتك.

ولم تنبس. كنت منهكاً.

وقبلّتك. شممتُ رائحتك. مرّغتُ أنفي ووجهي على غبار شعرك، تنشَّقت رائحة العرق على سترتك. أي فرح يغمرني وأنا أرى جنديّ الباسل يعود!

وزغردتِ العجوز.

فرح غامر كهطول المطر. كأشعة الشمس الشتائية، أزهر في ضلوع البيت اليتيم. أشعلت الجدة مجمرة البخور فانعقد الدخان وفاحت الروائح، حملتها الريح للجيران احتفالاً بالفارس الذي نجا.

كنتَ مرهقاً من المسير، أذكر ذلك. يداك مخدوشتان وملح العرق قد تخثر على خطوط جبهتك، ونضح من خلال الثياب مبيّضاً تحت إبطيك، وحذاؤك العسكري بلون الغضار.

ـ والآن هاتِ حدّثنا عن الذي جرى!

كعقاب جريح رنوت إلينا. شعّت العينان غضباً، ونضح الوجه الكظيم مرارة. ابتلعتَ ريقك كأنما سكين تحز الحلق.

ومن النافذة بصقت بصاقاً جافاً ملوثاً بالغبار.

ـ إيه. كيف كانت المعارك؟

هززتَ رأسك، ورسمتَ على شفتيك المشققتين بسمة يابسة، تحاكي ابتسامة ميت: معارك! هه. أية معارك؟

ـ الحرب!

فككت أزرار السترة الزيتية، والأصابع ترتعش. نزعتَ الرتبة والأوسمة. لففتها ثم قذفت بها: خذي. منذ الآن اذهبي أنت وجدتي إلى الحرب.

وضحكت: أنا أصير جندياً؟

ـ وماذا في ذلك؟

ـ وأنتم؟

ـ نحن؟ ها. ها. قال نحن.

وعكفت سبابتك نحو الأرض ثم تناولتَ من جيب بنطالك رزمةً من الأوراق الملونة الجديدة، فردتها بين أصابعك ثم قذفتها نحو الفضاء فراحت تتناثر فوق البلاط محدثة خشيشاً خافتاً، وراحت ضحكاتك الهستيرية تتعالى:

ـ خذي مالاً وسبّحي للسلطان. خذي.

لحظتها خشيت أن تكون النوبة قد حضرت. ها قد بدأت تصفرّ ثم تتغضن خطوط جبهتك، ازرقَّ وجهك وتقلّصت عضلاتك، وعيناك شعّتا ألماً واحمراراً، فقلت في نفسي: بدأ يدخل في تيه انفصامه.

سألتك: ماهذا يا حبيبي؟

تمتمتَ منسلاً من حضور النوبة: رواتب إضافية للشجعان. وبصوت كالرعد قلت: هذه هي الحرب يا أماه.

خيَّم صمت ووجل وتوقّع. قطعته أنا بعد حين محاولةً إخراجك من تيهك: لكن يديك مخدوشتان؟

ونهنهت منكسراً: من الزحف والاختباء.

تذكرت النقص والخلل الذي غرسناه في دمك، فأدركني شعور مبهم بخسارة الهيولى. مزحنا لأقصيك عن حالتك، ورويت لك نكات قديمة عن الشجاعة والنصر، وحكايا مريحة للأعصاب. كما توسّلتْ العجوز لباريها أن يمحو الظلم والغدر من العالم، وأن تغمر السكينةُ والطمأنينة القومَ المسالمين الأتقياء، فتخدرت.

فوق سريرك المُصان، المغسول بالغار والصابون المطيب بالعطر، انشلحتَ بحذاء القتال.

وقبل أن تغفو همهمت تنهيدة يأس: انتهت الحرب إذن!

لم يعد والدك من هجرته. ينتقل الآن من بار إلى بار، من مرقص إلى مرقص آخر. يهيم ثملاً محزوناً في شوارع المدن العربية وفي متاهات المدن الغربية، بحثاً عن امرأة وحرية وعن نفسه الضائعة. ينام على الأرصفة وفي الخانات المهجورة، يضرب في مجاهل الأرض فيزداد ضياعاً وحزناً ولايلقى رضاه المفقود.

وتنام أنت الآن في حفرة دامسة، ممتزجاً بالأرض بعد أن أفل نجم حياتك وهوى، هاجعاً تحت السكينة واليأس في ظلام سحيق.

منذ أعوام ونحن نتلهى بعدّ الأيام التي تمضي. أيام قاسية كامتداد المدية في عضلات القلب، ولامن يسمع أنين الأرض، ونواح الأمهات المثكولات في الليالي العميقة الحزن.

«طائرات يا أمي. أصوات ودوي. هي القيامة يا أمي. نيران مدّ الأفق. قيامتنا يا أماه. دعيه يعود. أريد أن يعود. الطائرات تحلق فوق الخندق فوق البيت فأين أبي. دعوني أصدّ الطائرات المغيرة. جسدي أماه. جسدي يسقط. الأرض تحترق. البيت يحترق. حياتي تحترق. مازال حياً. أماه أنت صبية. أيها الرجل الشرير لماذا هجرتنا. صوب الخندق هاهم يقتربون. دعوني أطلق. حرروني. بندقيتي فارغة. صارت عصا. لن تكوني سبيّة. الحريق... الحريق. لاأمل. عودوا أيها الرجال ماعاد لكم. آخ... آخ. الناس. كل شيء. الدم. التاريخ. الوراثة. العالم كريه. العالم يختنق».

وإذ تفيق من هذيانك، تراني جاثمة قرب السرير فتسألني:

أين أنا؟

أهز سريرك بدِعة: أنت في البيت. كابوس يا حبيبي. نم ياحبيبي نم. ولتنام أدندن أغنية قديمة تُغنّى للصغار في المهد، وتسبح عيناك في السقف بينما صدى الأغنية يضيع في متاهة الليل الصامت.

ـ هل مازال بيتنا لنا؟ تسألني بمرارة فراقية.

أقول: مازال.

ـ أين أبي؟

وبنصف إغماضة أرى طيف أبيك، ألقاه كأغنيتي الضائعة مهاجراً حزيناً يثمل ويبكي، لابيت يؤويه ولا أهل. موغلاً في قفار الأرض، مطروداً تحت سماوات غريبة، ناسياً تاريخه وابنه الخارج من ضلعه، والمرأة المكسورة الخاطر، تواسي جراحها في الصمت وتسهر عليك.

«ولاتقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق».

قال الشيوخ.

وقال فقراء العامة وهم يسيرون خلف النعش المجلل: مباركة النفس الملوثة تموت بشجاعة لتمهّد للنفس النقية. كم تمنيت أن أفديك وأنت تشتعل في الغرفة، يسبيك الحريق كما سُبينا في ذلك اليوم الأسود.

أذكر كيف كان المطر يسحّ على النوافذ، وصوت الرياح يدوي في سمعي، صامّاً صوت الحريق المتدفق فوق الجسد الذي أرضعته وربيته بالحليب والغناء حتى نما وترعرع ليشيل أحزان الأيام القاسية.

لكنك كنت تفنى وتترمد كما البرق، يطهّر الحريق نفسك في اللحظة التي خيل إلي فيها أنك تغتسل من غبار الحرب.

تماماً كما قال الطبيب. دقائق خمس ونوبة الانفصام ترمح في سهوب نفسك، والدم يغشي البصر. الانكسار وموسيقى الزنوج والغضب في آلاباما والمسيسيبي. موسيقى الذلّ والعزلة والاضطهاد. وأصوات البوذيين الذين يحترقون في الساحات العامة، تتحشرج تحت ضربات الألم الملغي الحدود. كنت تعزف أنشودة البعث في الموت. وكان المطر هو التقمص الجديد.

«ـ لماذا احترقت؟».

أي ذهن يستطيع أن يتصور الإنسان في عافيته المتأججة وفي سموقه النامي كشجر الحور. في ضجة جسده الدافق كينابيع الجبال الوحشية. ثم يراه كومة من عظم معجونة باللحم والدم المتفحمين، ملفوفاً داخل خرقة بالية كخيام المشردين، مرمياً فوق أرض قفراء، ثم لاينفجر؟

«هل تراك تركتني للاغتصاب الأقسى؟».

أراقب دبيب خطوات الزمن في وحدتي المنسية. أعرف لماذا احترقتَ في الصيف الذي مضى. أقرأ وصايا أيوب في سفر الأسفار القديمة. أتذكر زخّات المطر ليل احتراقك، تلفحني الريح القادمة من الشرق المتوهج، وأتمتم كلماتك بفرح فجائعي:

لاتحزني. تزوجي غير أبي ولِدي أطفالاً أسوياء لايهجرهم آباؤهم، أطفالاً لايحبون موسيقى الزنوج والعزلة، يطلقون النار بلا أوامر ولايتراجعون.

دمشق 1968

الومـض

الومـض

أتجه الآن نحو مكان ما. في رأسي نشوة صغيرة عابرة تملكتني غبَّ ارتمائي على أرصفة هذه المدينة. نشوة غائمة تشبه فرحاً وشيك الطيران. المدينة رائعة. سماء ربيعية مزدهرة بالغيم الأبيض والغيم الرمادي، وخلاله يضيء قمر في فضاء عذب.

على الأرض يسير الناس بهدوء، يبدون محايدين ومجانيّين. العداء القديم لقامات الحجر القائمة على أكتاف الشوارع خامد الآن. عرفت ذلك من الدندنات العفوية الخارجة من بين شفتي.

في الفضاء بشائر مطر، توحي بسلام متوقَّع، واخضرار يتوّج هامات الشجر يتلألأ مصقولاً وأكثر اخضراراً مما هو.

لا. للا. لا. للا..

ترنيمة تخرج. تسرح عبر هذا العالم المتواشج. عالمي.

هل قلتُ بأنني أقصد مكاناً ما؟ ربما. وربما لاأقصد أيما مكان محدد. ما أشعره أن المكان يتجه نحوي، وأنا أسرع نحو غبطة متوقعة تحمل رنيناً مزمناً في نفسي التي أزمنت تعاستها. ذلك الاتجاه يبدو لي رائعاً، مغطى، أخاف كشفه.

لست أدري، ومن زمن بعيد، لماذا أخاف أن تُجلى الأحداث. ذلك مايسبب لي نوعاً من الهلع الخاص الموصول بتجارب الإحباط التي مرت.

كان أبي يقول لي وأنا طفل: لم أر في حياتي يوماً أبيض. وبحدسي الطفولي القديم وذاكرتي التي تختزن رائحة العطب الكوني في الإنسان، أدركت فيما بعد أن عمر الفرح ليس طويلاً.

إذن! لتظل الأشياء كامنة من بداياتها وراء حدود العقل اليقظ، فربما أُضيف للحظة الوجد المشتعلة في نفسي الآن، بصيصٌ أكثر من الزمن المفرح. تررم.. للا.. ترللي...

أثب في الهواء قاطفاً غصناً أخضر وأنا أسير خبباً. أسير على أرصفة مدينة وقور، الحياة فيها مقننة والسلوك بمقدار رصين. على الشرفة المقابلة فتاة طويلة القامة، تلبس كنزة بيضاء ثدياها نافران، ووجهها تحت الضوء بلون الياسمين: فتاة عذبة. قلت وأنا أعبر الرصيف. فتلْتُ الغصن الأخضر بين أناملي، ثم مرّغته على خدي، فأحسست رطوبته البحرية. تمنيت خطفاً لو أتمرجح فوق مروج الاخضرار الساحلية القديمة التي غادرتها منذ أبد طفولي لن يعود.

لا. ابتعدي رجاء يا تذكارات محزنة وقاسية. الفرح مقبل الآن وأنا سيّد اللحظة.

رفعت النغمات لتطغى ويهمي النسيان، أشرعت يدي في هبة ريح مرحبتني وأنا انعطف في الشارع. مسحت عمود كهرباء بأصابعي المفتوحة، ثم مرغتها على جسد غيضة ياسمين غافية فوق سياج دار أنيقة. دخل الاخضرار مرة أخرى، منسرباً من رؤوس أناملي. استوطنتِ القلبَ أفراحٌ قديمة راحت تفيق في روابي النفس: بحار خضر، وجزر بعيدة منفية طحالبها خضراء ونوارسها تصيح بصوت أخضر، أطفال يلبسون ثياباً خضراء،

يمشون وراء نعش مجلل بكفن أخضر. في ذلك النعش توسَّد أب لم تكن أيامه خضراء.

لا.. لي.. للا...

هل تستطيع أن تكون محايداً؟ أود أن أكون محايداً الآن. أنسكب في لمعة الفرح الصغيرة المومضة، وأسلمها تاج عمري. أسير محايداً في غبطة من الزمن الصغير المدهش. أعوم فوق الأرصفة، فوق شر المدينة. أدندن، أثب، أصافح الأوراق، وحديد الأعمدة والجدران، وأراقب الفتيات لأول مرة بعبور لا إثم فيه. وفي هذه اللحظة المبرقة أشعر بمجد الحرية يخترم مسام نفسي.

كل اللحظات لكم وهذه الهنيهة من الإسراء لي. هاأنذا أدعها تتخلل كياني رامياً بينها وبين العالم سداً من النسيان واللامبالاة.

سبحان من أسرى بنفسه من البؤس إلى الحبور على خيط من الغفلة والحلم.

الزمن مخدَّر الآن، يستلقي في الخارج، غافياً في مكان لاأعرفه. ربما كان في العطفة التالية وربما في المكان الذي أرنو إليه لكنه طلع مني الآن كبرق حل في الأشياء: أيايا.. تم.. تتم.. تم.

غرفة نائسة الضوء، ستارتها حمراء، وأرضها مفروشة بجلد طري أبيض، وسرير واسع، فُرشت عليه بطانية مخططة بالأبيض والأحمر، وامرأة، وحلم. ومنذ قديم الزمان يحدث ذلك، لست ذاكر متى، ولاكيف ولماذا الأشياء تمشي خطوة ثم تتوقف.

نبحر في سفن غريبة، وفي عرض البحار تتصدع السفن، تتسرب المياه، ويشيل الهلع. الغرفة تقترب وصوت المدفأة يغرغر. موسيقى كئيبة، تصدح وداعاً لرجل مسافر، والمرأة متكئة تمضغ دخاناً وهي تتأمل الخيوط الدقيقة الرمادية التي تتلاشى. هو العمر يمضي هنا في غرفة سرية صامتة، والكلمات لايُجهر بها لرجل غريب نحبه بصمت.

عالِمان أنا وهي بالأسرار، والعطب الذي لايبوح، وبيننا وبين الزمن معاهدة وتوقيت. لكن البوح يجي متأخراً بعد ذوبان الصبوة. بعد أن تصبح الكلمات كخلايا نحل هُجرت.

بثوبها الحريري الشفاف تستلقي، مرفقها الأبيض على الوسادة البيضاء، وراحة كفها تسند وجهاً في عذوبة المطر الخريفي. ليست حزينة ولافرحة تعوم فوق سطوح العالم بقلبها الثلجي، ووحيدة تحلم بالفرح.

خزانة الثياب مفتوحة، وحقائب الأشياء الصغيرة مبعثرة، تلمع تحت الضوء الخافت، وكتب منتظمة صفحاتها لمًّا تقطع.

جسد مرمري معجون بالحليب والدم، داخل ثوب كشّاف. رؤى ودخان، ورجل مسافر، ثم غريب، وامرأة عذراء تنام طي بكارتها النفسية.

- أنت وحدك يا بنية؟

- أنا امرأة.

- يقول الناس ذلك.

- وأنت؟

- لم أجرب بعد.

- طويلاً ستنتظر، وعندما يبكي الحجر تجرب.

- ثمة وقت.

- تُمضي العمر بالأحلام.

- يقول الشرق والخوف ذلك.

- أنا لاأخاف. مايخطر لي أفعله.

- طفلة جميلة وكاذبة.

- جبان.

ـ وأنت قطة سيامية تنوء وتحلم بدفء الفرو.

ـ الكلمات العذبة لاتطعم نساء (تضحك).

ـ المرأة وطن منهوب.

ـ تتقدم خطوة ثم ترتعش (تضحك أعلى).

ـ قبلكِ جرّبت نساء.

ـ كيف رأيتهن؟

ـ يعطين رجلاً آخر.

ـ أنت أناني تقطن داخل جلدك.

ـ أرغب امرأة تقبل بعد الشهوة.

ـ أحلامك مريضة.

ـ أرغب امرأة مغامرة.

ـ راوحْ مكانك.

ـ لماذا تخافين الخيانة.

ـ ولماذا أخون؟

ـ لأن رجلاً آخر يقطن جلدكِ.

ـ أنت تخون؟

ـ ومن الذي لايخون.

ـ ماطعم الخيانة؟

ـ ثأر عذب مسكر. فيه كشف وندم.

ـ الرجال قذرون شهوانيون.

ـ والنساء أطهر من مريم المجدلية.

ـ لو أن الإنسان لاينمو.

ـ لو ندخل بوابة الجحيم.

ـ أنت رجل شقي.

ـ وأنت امرأة سعيدة.

ـ ملعونان نحن.

ـ لندخل تحت عتبة اللعنة.

ليس عدلاً أن تنام في فراش رجل غائب، مع امرأة ما تزال عذريتها النفسية مصانة، غير أن الذهن يسبق ذلك. وبين الطرفين الممدودين بصمت، تحت غطاء خوف السنين، وتخطّي اللحظة الشفافة، يمتد وشجٌ خائن يلمع كالومض، ويحدث الفعل. وتسأل: هذا القتال اللعين بين الذهن والفعل متى ينتهي؟

ـ أترحل معي أيها الرجل الغريب؟

ـ أرحل.

ـ هلمّ.

نهجر الناس والأطفال والأزواج الجرحى. نمضي إلى البراري والجزر الوحشية نفعل ونغني ونبكي. نحس زلزلة الأرض ودوارها تحتنا. نصعد تلالاً غضارية ونرتمي في وديان سحيقة وعرة. ننحشر معاً في مغاور قديمة عنكبها الزمن ثم نصرخ كالوحوش في مجد النشوة المشتعلة. وبعدها نموت بلا طقوس ولاحزن فوق أديم الأرض.

غير أن لمعان الأشياء المصنوعة بإتقان هو التحوُّل، والغرف التي تشبه الصناديق المقفلة تعوِّض عن مغاور الجن المهجورة.

هكذا حدثت اليقظة على خيط من السقوط المغفل، وبدا لمعان الأشياء المصنوعة وغرف الصناديق المقفلة، أوشحةً وهمية

للبكارة التي تمزقت في السر، وبعيداً عن الرجال المسافرين كانت الخيانة تنام بهدوء خال من الإثم. صاح صوت الزوج القاسي: من أنت؟

أجبتها: الرجل الغريب.

قال: ماذا تريد؟

قلت: أريدك أيتها المرأة الصغيرة.

شالت عينا الزوج المعلقتان في السقف: أنا لاأعرفك!

قلت لها: جئتكِ في الأحلام يوماً.

انعقد غضب الزوج في عينيها: أنت غريب!

همست لها: أنا رجل المسرات والصبوة الخائفة.

صرخ الرجل المطعون في الظهر: الفرح مسافر.

قلت: أنا الفرح!

نَدَه الصوتان معاً: غادر. غادر. الغرباء لايطؤون بيوت الرجال المسافرين.

ـ سلام أيتها المرأة الفاضلة.

هو هناك. في العطفة، وفي كل عطفة، في الرأس والرحم مقبل ومدبر، خارج من الأرصفة ومن أعمدة الكهرباء، من السقف ومن الشرفات المعتمة. ساتر المطر، ومغطٍ وجه القمر بضبابة غبارية.

جاثم بيني وبينها على بوابة اللحظة، كفارس قتيل يحمي ظعينته بعد الموت، قائم كجسد محنط. لكن من الذي يتقدم ليهزّه؟

عاد إلي الآن. وأنا ما أزال أسير، بعد أن انعطفت ملفوفاً داخل عباءة صمتي.

أسمع صوت الخطوات فقط ورنين الصمت، وأرى هراوة

الحارس الليلي تتأرجح على جنبه، وهو يهز جسده الراغب في النوم.

هي ذي الحواجز الحجرية عادت لتنتصب أشباحاً من القسوة والتحدي فوق جميع الأرصفة. جميع النوافذ مغلقة والريح ماعادت تهب.

سنفير. بافير. كرنتينا. شملون. ترللي. النساء والفضيلة، النساء المكسوات جيداً بالأحذية والفساتين الزهرية، والفساتين تغطي البكارة بصناديق من إسمنت، وصناديق الإسمنت تمنع الخيانة، والخيانة تتم بصمت، والصمت لايبوح، والشرق حكاية دنٍّ الزيت المغلق وفي هذا الدن: شملون. جبل. حفرة. معطف. شارع. نبيذ. ليل. نحيب. رقص. غبار وشهوات تُحتضر. مجرات، وشموس تسقط في مستنقعات الشرق، وأنا وحيد أسوح عبر العالم بذهن منحط، أبحث عن شمس حارة لاتسقط.

دمشق 1969

حميمود

حميمود

بشرش شجرة التين البرية المنتصبة بين دغلات الديس، عَقَلَ حميمود بقرته. منذ ثلاثة أعوام اعتاد ربط (حمّورة) بالشرش نفسه، وقبلها ربط (عبيدة) (وزيتونة) البقرتين اللتين ماتت إحداهما مساء يوم قائظ على الطريق المؤدية للقرية، ويومها حزن حميمود بصمت وبكى، غير أن البقرة استلقت فوق غبار الطريق، خارت بآلام حادة وخرج من فمها رغاء أبيض كثيف، ثم ضربت بأظلافها ورُكبِها الأرض ضربات متلاحقة مهووسة ومتشنجة وخمدت. يومها أيضاً لم يعرف حميمود لماذا ماتت (عبيدة) البريئة.

بعد عام صحب الرجل ولمدة عامين البقرة الأخرى لكنها بيعت فيما بعد لجزار من قرية مجاورة، وبذلك تعلم حميمود الفقدان وهجرة الصحاب.

كانت البقرة الجديدة تعني لحميمود ماعَنتْهُ الأختان الراحلتان، مجهود اليوم في الرعي والعناية وصداقة السهول وكروم الزيتون. سوى أن حمّورة كانت أقل تعقلاً وأكثر تشهياً لمروج الفستق الخضراء المتنامية على شريط الساحل.

شدّ حميمود العقلة ومتّنها خوفاً من عصا علي ناعوس، حارس السهول والغاضب بلا سبب مذ تولى عرش الحماية والسطوة على البراري الفساح.

ومن رقبته حلَّ حميمود جعبة طعامة القماشية، جعبة داكنة ملطخة بالزيت والغبار، ثم نزع زوادته وفرشها في الظل فوق العشب وقرفص. كان الزاد مؤلفاً من رغيفين من خليط الذرة والقمح، وحبات من الزيتون الأخضر مع بصلة يابسة، وكرتين من البطاطا المسلوقة.

بنهم أكل حميمود غذاءه، ثم سجد على حافة الساقية المجاورة وغبَّ من مائها الراكد حتى ارتوى. مسح بكمّ معطفه الأسود المهلهل فمه وذقنه النامية، وعاد فعلق الجعبة بأرومة غصن مكسور ناتئ من شجرة تين يابسة.

على بُعد خطوات من التينة الناشبة بين العليق المهجور، المليء بالغيلان والآفات، نهضت المغارة التي يستلقي الراعي في فيئها الرطب. مغارة قديمة منسية من عصور لاتُعرف بدايتها، بعضهم قال بأنها وجدت منذ وجد الإنسان، وآخرون قالوا بأنها من زمن الإسلام الأول، وغالى البعض فقال إنها موطئ قدم البراق الشريف يوم بدأ الإسراء. نُسجت حولها الأساطير المخيفة، غير أن الأحفاد عرفوا فيما بعد أن لصوصاً ومهربين سكنوها، آوتهم من المطاردة حيناً من الدهر، وأنها ليست أكثر من كهف نُحِت في الصخر وتَشَكل بفعل عوامل الطبيعة. مع الزمن وتعاقب الأجيال سقطت تلك القداسة التي حومت حولها، فصار حميمود يفيء إليها في ظهيرات الأيام الكاوية.

على بوابتها استلقى كعادته. فوق التراب الرطب الممهد ولصق الجدار رمى برأسه فوق حجر مسطح، فأحس غمرة من الأمان والطمأنينة تسيل في جسده المعنَّى.

كانت المغارة خباء من الصمت ينسدل فوق الجسد والنفس،

وهنا كانت الأحلام والنساء المحرمات حلالاً، كما كانت العزلة مريحة.

هوّمت عينا الرجل في السقف الكامد، وتابعت عنكبوتاً أبيض البطن أغبر القوادم يحيك نسيجاً صمغياً ينحدر فوقه نحو البوابة ولايصل، ثم دار المحجر في الظلام العميق لهذا الكهف التابوتي فتسامق الظلام ثم انسدّ، ونام حميمود.

إلى الشرق من مغارة (الشرشار) تقوم ضيعة حميمود. هضبة من البيوت والشجر والناس. لم يكن يأوي إليها إلا في الأمسيات بعد أن يمضي يومه عبر السهول المجاورة للبحر أو في الوديان. وفي تلك الضيعة لم يكن ذلك الراعي اليتيم أكثر من أبله، يعبر به البشر فلا يبالون به، حتى التحية لم تكن تُلقى عليه، كأنما هناك اتفاق سري أُبرم بين الجميع على عزل هذا المخلوق الذي لايعرف كيف يرد السلام على الناس.

ذات يوم أفتى شيوخ الضيعة: محرَّمة عليه الصلاة. فحرموه منها.

وهكذا عاش واستمر بلا دين، ولاقيمة، كحجر مُرمى قرب جدران أزقتهم الزنخة.

مع تعاقب الأيام نسي حميمود الناس. كان يراهم فقط وهم يعبرون، كما يرى الأشياء القائمة فوق سطح الأرض. ثم مع الزمن اعتاد أن يكون وحيداً كقط بري.

تميل الشمس عن سمتها فترمي أشعتها التعبة فوق السهول، وترقص فضية براقة فوق مرايا البحر، فيبدأ هواء السهول فاتراً حنوناً، ويُنار باب المغارة كاشفاً عن جثة ملفوفة بمعطف مرقع مثقوب، ووجه متطاول حفره التعب وحرثته سني الفقد وكراهية البشر. يحسر نور الشمس ظلال الجسد بنصوع يزيد بروزَه سوادُ المغارة الداخلي، وأسرار آلاف السنين المختزنة في ممراتها

الغارقة في العتمة والصمت، لكن سر المغارة ونفس حميمود تضيعان في زحمة الأيام. يتململ الجسد تحت وطأة الضوء، وترف عينا ميت قام على مهل. عينان حمراوان ضامرتا الأهداب. يتثاءب بصوت وحشي مبهم ثم يتمطى. وبقفزة هررية مذعورة يصبح خارج باب المغارة. في يده عصا شُذِبت من شجرة زعرور. يرنو نحو الغرب خائفاً من مغيب الشمس، ثم يهز رأسه ويضحك ضحكته البلهاء المفلوجة، وبطرف العصا يلكز حمّورة الجاثية وهي تجتر ما مضغته قبيل الظهيرة.

تلتفت البقرة بعينيها الوحشيتين المضيئتين نحو راعيها. ثم تتثاقل ناهضة، وبعد أن تنتصب فوق قوائمها، ترسل خواراً حزيناً يمزق الصمت والمدى ويردد صداه جوف المغارة الأخرس.

يفك حميمود الرسن المعقود بالشرش، وهو يتأمل هذه الصديقة شغفاً مغبطاً. تنتصب قامته التي انحنت فتنغرس في عين حمورته. ومن مكان مستور تصّاعد لهفة منكسرة تمتد بين عينيه وعيني البقرة. تتسع عيناه أكثر، وقد تاهتا في ماوراء بؤبؤ عينيها، وتتمطى اللهفة غوراً في العين الطويلة السوداء. تصبح العين بحراً، مدناً، وقرى، يخطر فيها أمواج من النساء الشهيات العصيّات على الأخذ. لكل امرأة أكثر من رجل، ولكل رجل أكثر من امرأة. البشر الذين خرقوا المواثيق وتخطوا قسوة الشرائع، انحرفوا نحو رغباتهم، وتاهوا عن الله يسمرون ويضحكون ويتنهدون. هاهم في حلقات العشيات في ساحة القرية وأمام الحوانيت، يقفون، أو يجلسون على حجارة بيضاء، شباباً وثنيين مستهترين قرب نساء أرامل هجرهن الرجال إلى ماوراء البحار أو إلى المقابر، فبقين وحيدات تشبُّ فيهن الرغائب وروائح الذكور الذين رحلوا. فتيات عمرت صدورهن، نضجْن، وفي النفس قام الوجد، يضحكن عالياً فيرنّ الليل، ويخفق الصدر المتلع مع الضحكات، لكأن زمناً سحيقاً نائماً كانت فيه تلك الضحكات غافية

تحت رماد الاستكانة هي ذي الآن تستيقظ. يسمع وهو يلطي في زاوية بيت مظلمة عازباً يقول لأرملة: جسدك مزار أطوف حوله.

تقهقه: لكم أنت غبي!

ـ لو تدرين كم ركعتُ وابتهلتُ من أجله.

ـ ها. ها. ستموت ألف مرة قبل أن تنال منه شعرة.

ويصرخ رجل متزوج يحتسي خمرته: في صحة كل أرامل وفتيات الضيعة الشبقات. يمتعض عازب محقون: سمّ زعاف اشرب وازحف نحو خيمة عجوزك!

ويسخر خاطب خباً خاتم خطوبته: ديننا أفسح دين، لو قيست به بقية الأديان لبدت متزمتة. أعطانا أربع زوجات.

ـ ناهيك عن التسرّي وزواج المتعة.

يردف عازب آخر مندلق الكرش: بروحي المصطفى التقدمي.

ويشيل صوت قادم يضع نظارة طبية بيضاء: يا أبناء سدوم الملعونة!

مايزال حميمود محدقاً في عين البقرة. العين الوحشية الوحيدة حيث يرقد الناس والنسيان والرسالات القديمة، ثم هذا الأبله المتقن للرعي والنوم في مغاور الظلام والصمت، وأحلام الجنس المحرمة.

هذه البقرة حميمة إلى نفسه، يحس ذلك فيعانقها، يحاول أن يتحدث إليها فيشعر بأنه عيي. تتشرشر الكلمات من فمه. صوت حيواني باهت يخرج، تبتلعه البراري ويمتصه الفضاء الزعفراني.

فقط وفي الأعماق المسدودة تختلج دمدمة، يحس حميمود أنه يفهم، لكن البقرة والناس حجارة، حتى الفلوات والمغارة صارت مقبرة للتذكر المغتال.

هو ذا حميمود الإنسان المعمر الراعي يخطر بين البشر كفئران الحقول العتيقة، ينتصب على بوابة المغارة بعد أن سافر القتلة وتناسلوا في طول الأرض وعرضها، ملؤوا الساحات حتى ضاقت بهم الأرض. ناس... ناس... كالجراد، كالنمل، يبحثون عن كل شيء عدا الأنبياء، بشر صادوا الغواية وصادتهم، رغباتهم مطاياهم، ذلك ماهو الآن... ذلك ماهو الآن...

يجمجم فتخرج الكلمات صيئات بدائية فيهز رأسه يائساً، بادئاً مسيرة الرعي المسائية: رسن حمّورة في يده اليمنى وفي اليسرى عصاه، متقدماً البقرة، ميمماً جهة السهول المبسوطة على مدى النظر حيث تنفرش بيادر الفستق الأخضر مروجاً تفصلها التخوم والسواقي كثّة الأعشاب.

كانت سهول القرية تتمتع بذلك الاخضرار الدائم على مدى الفصول، ويشتعل اخضرارها الغضّ أكثر في طلائع أيلول شهر الرياح والرطوبة والأحزان.

بين تلك المروج المترامية على حوافي البحر كان حميمود يسرح ببقرته، ساهماً مدى ساعات في البحر والسهول، وعبر خيام الفلاحين المتناثرة.

الطريق إلى قرية حميمود غباري مزروع بالحجارة المغمورة بالغبار هي أيضاً، وفوق الغبار ثمة آثار أقدام للناس والحيوانات. على منكبي الطريق ينهض الزيتون المعمِّر، أسود الجذع، مشقق القشرة، محدباً بنتوءات سنوية. زيتونة قرب زيتونة قرب أخرى، قائمة كهيكل بشري محروق، صامت ووحيد، كشواهد قبور من الدهر الأول، وفوق الطريق ثمة سماء كدرة، وفضاء أغبر تهزه الريح.

يخبّ حميمود بخفّه الدهري الواسع المشروخ، في حزن المساء، محنياً فوق غبار الدرب والبقرة تتهاون خلفه. على الدرب

يترك هو الآخر علامات. يتحدب الدرب ويلتوي ثم يصّاعد نحو القمة، ورجل التاريخ يتلفع معطفه المثقوب وكوفيته الرمادية المحسورة عن جبهته. تتعرق قطرات تسيل من الناصية نحو شعرات الذقن ثم تتمهل، ثم تنحدر بسرعة خاطفة على وجه الغبار.

إيقاع للقدم ثم صمت. رفرفات للعين المرمدة أبداً ثم صمت. قامة مقوسة بالقهر والنسيان والصبر، ثم لاشيء البتة.

الطريق يمتد سابحاً بين الزيتون والظلمة وشجر الصبار، البقرة شبعت والشمس فوق خط البحر الأفقي برتقالة تزداد احمراراً، وفي الخلف والمقدمة الفلاحون المتعبون، ثم حميمود والزمن الهارب.

الآن. قبل الآن وبعده، من يذكر؟ ماقيمة التاريخ الذي مضى ولم يعطِ الكفاية للناس ولم يخرق سديم الملايين الغفل. اكتفى بقيادتها زمناً ثم غار!

لماذا لايستطيع الإنسان أن يتذكر: الولادة ثم الموت ثم الحشر ثم البعث!

واحد. اثنان. ثلاثة. أربعة... والخفّ العريض المشرّط يرسم علامة. «وفيما مضى كان هو الآخر علامة. جيل تلاه جيل سلّ أجيالاً والصمت لايتكلم ولايلج إشارة المطلق، لايقول شيئاً.

كان الرجل المنسي سيد قومه في غابرات الحقب، طلع من ضمير الصحراء عشية ليل وثني. كان يتيماً كما هو الآن وكان يحب الرعي. رعى البَهْمَ ورعى البشر، وكان يعشق الوحدة والنساء، ولم يكن غبياً. امتص زمنه وارتقى متن رغباته، كان يحيا ويبرر ويعرف جيداً ماتريده تلك النفس المتطلعة، النفس الملتهبة، وعلى مر الزمن صار حكاية ثم مجداً وغاب.

في ضمير الأزمنة أسرى البشر وعرجوا، ضلّوا وأدركوا،

قامت حروب وأُحرقت مدن. طاف من طاف بالأضرحة، ورشَّ البخور فوق القتلى، وهاهو جيل يحب النساء والوحدة والحزن ويكره السجود يولد».

كضبابة معتمة يجيء هذا الإدراك القديم، يجتاح غيابة حميمود، تصدمه بعدها رعشة خوف من شخص كان غائباً هوذا يحضر فيه الآن. تنسد المنافذ ويقع مغشياً عليه، وتختفي الضبابة.

عندما يسقط ويعبر به الآخرون، كانوا يهزؤون منه، يركلونه بأقدامهم ويصفعونه كيما يفيق من نوبته.

في ضحى يوم قائظ داهم حميمود التذكر، جاءه كسحابة هادئة من غيب قصي، لفّت أمام عينيه وراحت تدور. ارتعش البدن العتيق واجفاً وثقلت الأجفان ثم دارت العينان. الرأس طار ثم انفتح عبر الفضاء السحابي، وداخل النفس عبر الماضي انفتحت الممرات الدامسة.

علامات تمر خفقاً، وتلال الرمل والمضارب تعبر كإشارات هلامية وامضة. هوادج النساء تبدو ويخرج منها فُرسان يضربون أعناق بعضهم البعض. الرجال يضرمون النار في المضارب والأطفال، القتلى ونواح الصلوات يغطي الصحارى، ومواكب الحريم تمشي في الفضاء عارية، مجللة، ثم الفضاء الأصم ولاشيء غير الظلام.

تفلت حمّورة نحو المروج الطرية. تنحني قامتها دافنة رأسها عبر الحشائش ثم تروح تلتهم بنهم أوراق الفستق المحرمة، بينما يهوي فارس المراعي نحو الأرض. على التخم يرتمي وتتمدد أطرافه براحة، وحمّورة توغل في غياض الخضرة، والسماء مضيئة وقاسية. يبدأ البدن يرتعش أكثر ثم يزفر الفم زفرات صغيرة متقطعة، وتتحرك القدمان ثم تتشنجا. يتعالى الزفير محدثاً صوتَ حشرجة لحيوان غريب، حجاب الصدر يرتفع وينخفض

وتخرج رغوة تبدأ تغرغر على حوافي الفم ويتواصل الأنين الوحشي.

من بعيد هدَرَ صوت الحارس متوعداً خرق الفراغ والسهول. جفلت حمورة فرفعت رأسها واشرأبت أذناها. توقفت عن قضم الحشيش وحول عينيها المفتوحتين بتوجس راحت ذبابة زرقاء تطن.

ـ أيها الكلب. وقعت. قال الناطور القاسي.

اقترب ملوحاً بعصاه السنديانية حتى أشرف على الجثة.

ـ جاءتك النوبة. هاه. هذه حجتك لتشبع حمّورة. خذ إذن. وانهال بعصاه فوق بطنه وفخذه وصدره.

أنّ الحيوان متأوهاً.

ـ من الذي ينجيك من يدي يا لعين. يا داشر بأراضي الناس.

تحت الضربات كان البدن المخدّر يتلوى ويتمرغ، والصوت الوحشي يزداد حدة، والحارس يضرب بتلقائية لئيمة. بحمى مسعورة تهوي عصا الحارس فوق الرأس المعفر بالوحل والحشائش. ضربتان وتتجمد الثالثة في الفراغ. ينفغر فم علي ناعوس وهو يرى نثار الدم من الجمجمة. يتمتم بخوف: مات. مات حميمود.

تلك كانت بداية رحلة الراحة للذي فقد ذاكرته وبقي له الحس. تعطلت النفس يا حميمود وبقيتَ شاهد الصمت الأعظم، لكن نبوءة الحارس تحققت على نحو آخر من الموت.

بدون الراعي راح الناس في القرية يؤدون طقوسهم. لاأحد يذكر، أو يهتم، والنفس المقفلة نسيت حالتها السابقة والشر موغل في البشر حتى يوم القيامة.

الشيوخ يؤدون صلواتهم الخمس الاعتيادية فرادى وجماعات على طريقتهم الخاصة في البراري والبيوت، يذكّرون بالقيامة والحشر وعقاب الآخرة ويرثون الأملاك. من أموال الزكاة يشترون الأراضي ويعمرون البيوت ويتزوجون الصبايا النضرات، بينما فقر العامة ماضٍ، وتحت ستر الأستار يسكن النسيان والنبوة. التسبيح لاينقطع وحميمود أبله الزمن الحاضر يهز رأسه ويضحك ولايقيم الصلاة. على الأرض نفسها مع الفقر والصلاة، تشبّ أجيال الفتية، بين الحارات والحوانيت في الليل الأسود هي الأخرى أيضاً تصلي صلواتها الخاصة للجنس والحزن والرغبات المسدودة، لامبالية بأفواه الشيوخ الغبية وهي ترتل خَدَر السنين.

الطريق يمتد ومازال الإيقاع هو... هو.

الجسد المنحني تحت المعطف الرث، الذقن الطويلة الشعر، الاهتزاز وضحكة البله ترين على السِّحنة الحشرية. ويسمع حميمود أغنية صبية عاشقة تعبر الدرب فرحة تقول:

«في الساحة لي عشيق

وموعدنا الليل.

الحزن وشاح الذي صار وحيداً

والقلب ينفطر ولعاً.

إلى مغارة الشرشار

يخطفني حبيبي،

ألا ما أقوى ذراعيه وهو يضمني

إلى صدره».

والدرب غباريّ وطويل، عليه يمر الفلاحون المتعَبون

المحبون للصلاة، والخائفون من عقاب الله، وخلفهم هذا الأبله المأفون الفاقد لذاكرته النبوية.

من تراه يذكر. من تراه يصدق. التاريخ لو ينطق مرة واحدة بصدق في وجه البشر القاصرين عن التذكر، والذين لايؤمنون بالمعجزات والبعث.

ـ لماذا العقاب بل لماذا الشر؟

ما الذي يحدث لو أن حميمود خرق الغياب وعادت الذاكرة. لو أنه وقف يوماً على هذه التلة القائمة في مشارف القرية معلناً المعجزة:

«أيها الناس أنا هو تاريخكم السحيق، وإنني لعائد إليكم مبشراً ونذيراً!».

تخفق ريح واهنة أصيلية، فيتحرك الشجر المبارك حركات حزينة، ثم تخور البقرة.

يقول شيخ مسن لزوجته الصبية: أنا خائف يا امرأة.

تقول الزوجة: ولمَ الخوف؟

يردّ الشيخ: حلم غريب مفزع طاردني طوال الليل. رأيت رجلاً طويلاً يلبس جبة خضراء على رأسه عمامة خضراء فوق فرس خضراء وفي يده رمح أخضر. يعبر حقولنا الخضراء فيحرقها بطرف رمحه.

ـ ثم؟

ـ ثم رأيته يهذب فرسه فوق النار باتجاه الشرق. ضرب الزيتون فأحرقه أيضاً. تواصلت نيران السهول بنيران السفوح، وماجت النار فكسف الدخان البحر والسماء، وصار الفضاء ناراً.

ـ وقانا الله... ثم؟

ـ ثم اخترق النار على ظهر الفرس العاري وبيده الرمح الأخضر، والفرس تجمز كالريح حتى وصل القرية. وسمعت صوته مجلجلاً كرعد السماء: يا قوم جاءكم الحصاد. أنا منجل الله وهذا رمحي علامة.

تأوهت الزوجة كأنها تموت: قِنا يا رب التهلكة... إيه؟

ـ احتصد من النفوس ما احتصد. دمّر المنازل، وهدم المعابد والمقامات، وراح رمحه يخترق الصدور والجدران ويضرم اللهيب، أحرق القرية بناسها وبيوتها وشجرها وسمعت صوته السماوي يقول:

قاتِلوا الأنبياء صلواتهم كاذبة وأبناؤهم غير شرعيين. يرثون الأرض بغير حق. ثم رأيته يطير فوق النار على ظهر الفرس وبيده الرمح وغاب.

ـ ولم يبق في القرية صافر نار؟

ـ نجا ذلك الراعي الأبله الذي لادين له ولا امرأة.

ـ ويحي. أيُحرق الشيوخُ والقديسون ويبقى الأشرار؟ يا رب سترك!

تلفع الشيخ بعباءته وخرج. نادته المرأة: إلى أين؟

ـ لنقيم الفرض تكفيراً ونكشف على الحقول والناس.

ـ لكنه كابوس!

ـ من يدري!

وفي زاوية مجاورة يتكور فتى أسمر ملهوف في انتظار خروج الشيخ.

فوق القرية والطريق والغبار يرسو المساء، فيبدو الفضاء الأرمد وأولى النجيمات تتلألأ في سماء الغرب. يحس حميمود

بالضنى، وبحفنات التراب والحصى الصغيرة تدخل حذاءه وتقرص أصابع قدميه. بصعوبة يرى فيجلس على صخرة يمين الدرب ويحدق في الظلام الصامت.

صمت يمتطي صمتاً يدخل في صمت عبر ظلام لابداية له ولا نهاية، والأبله هنا مرتم فوق حجر منسي، هذا المنسلُ عبر الزمن من سلالات الأنبياء القدامى الذين ظللتهم الغمامة. قاد حروباً وشرع أنظمة وقوانين وقيماً. كان فحلاً يملك أكثر من امرأة شهية وصغيرة، وكانت له أحاديث تناقلتها الأجيال. يتيم الزمن المنبوذ هذا لماذا هو الآن وحيد بلا رغبات؟ يعبر به البشر ولاتحية في الصباحات والعشايا والعالم مستمر والصمت لاينخرق، وضربات علي ناعوس اللئيمة ماتزال تدوي في جدران الجمجمة. والشيوخ لايعترفون بالتقمص الغيبي وعودة الروح، خوفاً من الصحوة وعقاب الخمر والزكاة وامتلاك الأراضي والزنى المشروع.

يقول الفتى لزوجة الشيخ: كم أنت لذيذة!

تتأوه: أنا لك. خذني.

ويأخذها.

- لكنك صبية فلماذا تزوجته؟

- آه... أيضاً!

- يالك من امرأة مسعورة!

- هيا يا مهري هيا.

- وزوجك؟

- حافل إهابه بالسجود والترتيل لله والمال.

- لو رآنا؟

- يكذّب عينيه.

تلك هي السلالة التي وصلت واستراحت.

في بقعة ما من الظلام ناحت البقرة بخوار حزين فزِع، فتنبه حميمود من غفلته وصمته. قام وقادها.

كان الآن على مشارف القرية. بعد لحظات سوف يلِجُ الأزقة المعتمة، يربط البقرة بوتدها الملوث بالروث. تعطيه المرأة التي يرعى لها بعض الخبز والزيتون والبصل فيأكل عشاءه على حجر في عرَصة الدار الفسيحة، يشرب ويتمتم كلمات لامعنى لها، ثم تفرش له حصيراً وفراشاً من أغلفة العرانيس ومخدة من قش البرغل. سوف يستلقي تحت الدالية فيرى من خلل فتحاتها النجوم والسماء والصمت. سيحلم بامرأة شهية وصغيرة، وأخرى كبيرة تنام معه في فراشه تلامسه وتسري فيه الدفء ورائحة توق الجنس الإنساني. لكن كل شيء يجري عبر مجراه المنحرف، وعبر خرق الثياب وخرق الأيام المتماثلة.

وتظل حمّورة والسهول، اليقظة الدائمة في صباحات جميع الأيام، كما يظل هو الشيء الذي كان يمكن ألا يكون لا في الزمن السالف ولا في الزمن الحاضر. وفي الزمن القادم لا أحد ينتظره.

دمشق 1969

حالة طلق

حالة طلق

1

عبر البراري كان النهر يجري. وكانت هناك امرأة تتوجع وقال الصياد: ياله من يوم قاتم، حافل بالصيد، لابد.

وفي غرفة نائسة الضوء، دافئة، راحت امرأة تتعرى.

وقال القسّ في كنيسة مجاورة: طقوس الحياة الآب والابن والروح القدس. الهبوط، ثم الصعود، فالسكتة.

بقدرة ذاتية متولدة منه، كان النهر يجري بين القصب والشيح. وبين القصب والشيح راح البط يرعى. وكان هناك طمي.

فرحٌ كولادة طفل، هبَّ على روح الصياد وهو يتصور أسراب البط تعبر النهر.

- باسم الآب والابن والروح القدس أعمدّك.

رشت القابلة الماء المقدس فوقها، بينما كان الطلق يبدأ.

في الغرفة الوردية النائسة، بدت المرأة تمثالاً من المرمر

المرصع بالعقيق. وعلى الفراش تململ وجع شهوي اخترق ذرات جسد الرجل المنتظِر هبوط المرأة.

ـ إنما نبلوَكم لنرى عند الله أتقاكم!

هو ذا اسماعيل يمتطي الدروب، باتجاه براري الصيد في غبش الفجر، ومعه كلبه. واسماعيل صياد قديم، من سلالة تحترف القتل مذ نبتت على سطح الأرض. واسماعيل رجل يؤمن بالله أيضاً في ساعات الضيق، لكنه يؤمن بالصيد أكثر.

قبل أن يخرج من بيته، حلم بصيد وافر. ببطّ يسد منافذ الأفق. بطّ أبيض وأخضر وأسود، يقبل فارداً أجنحته، مقترباً ببطء حتى يصير على مرمى.

الطلقة الأولى في المقدمة، تتلوها أخرى، ثم أخرى في الوسط والمؤخرة. جنون من الطلقات ويتكوم البط القتيل والجريح قربه فوق الطمي.

طقوس.

وبغنج مُتهتّك تنفتل المرأة العارية أمام المرآة.

هي أيضاً في لحظة مواقعة ذاتية، في لحظة متولدة ناراً كطاقة النهر، والرجل الذي يتوقع هبوطها يضغط بحنقٍ الفراشَ والوسادة.

ـ المرأة إله وأفعى في جسد واحد. قال الذي يشتعل شوقاً وحقداً.

ـ ماذا سنسميه؟

تساءلت النسوة في الغرفة المجاورة.

كانت الأم التي تتمخض تعضّ أصابعها والوسادة. تنشج جنساً مرفوضاً والألم يرشق ضلوعها بطعنات كالمِدى.

ومن كنيسة مجاورة، راحت التراتيل تدوي كأزيز نحل في جِرار مقفلة.

ـ اسماعيل.

إلى ضفة النهر سبقه الكلب. اشتم رائحة البط فعدا. صرخ اسماعيل بالكلب فالتفت نحوه. ثم وثب إلى الدغل.

من كتفه نزع بندقيته وراح يجري فوق العشب الغضّ. كان يدوس العشب المندى، وفي أنفه رائحة البط، والطاقة الذاتية المتولدة من حمّى الصيد.

هو الآخر يواقع رغباته بطقوس رجل متوحد.

الصيد عذب.

الطفل عذب.

والمرأة التي تعرَّت أكثر عذوبة.

جميع الأشياء الغافية تحت جناح التوقع عذبة، مادام الفجر لمّا يطلع بعد.

طقوس عذبة.

قبل أن يصل اسماعيل الدغل، نَفَر البط. سمع صوته وخفق أجنحته، فخفق قلبه بعذوبة. وإذ سمع عواء الكلب وصوت خشيش الدغل بعيداً عنه، شتم الكلب المهتاج، ودهمه امتعاض وحنق.

ـ البط يرحل!

ـ ثمة بط آخر لاحصر له. قالت رغائب اسماعيل التي تتوالد كتيار النهر.

الآن دخل بين أجنحة الدغل.

اقتربت المرأة العارية من الفراش.

وازداد طلق التي تتمخض جنساً مرفوضاً. جنساً كريهاً كعلق المستنقعات.

الرغبة فَصَمت شفتها السفلى عن العليا، فبدت مهدَّلة تحتبس بشهوة لها رائحة، وراحت كل ذرة من الجسد المخملي تنبض. ترتعش بالتوقع.

إيقاعات طقسية، يتخللها برق.

الرجل المستلقي على الفراش، عارٍ هو الآخر. ممدَّد كأرض تشتهي مطراً والدنيا صيف.

عيناه مذ بدأ التعري تجوبان خريطة التمثال. ترتفعان. تنحدران. تجتاحان. وفجأة تتسمران في وادي الفعل والطاقة.

وكما رأى اسماعيل أسراب البط تسد الأفق. بط أبيض وأخضر وأسود. بط يأتي من بحار مجهولة فرحة، حاملاً ريحاً من فرح، رأى الرجل المستلقي وهو يسبل جفنيه وطناً من فرح يُقبل محمولاً على غمام من شهوة، حريرياً ودافئاً.

حين دخل سفوح المرج الحريري العبق، سحرته الروائح. روائح لا يدري من أين انتشرت. كيف نفذت من الجلد المخملي، من تحت الإبط، من ساحة ما بين الثديين، ومسيل الفخذين.

هو ينساب سابحاً. يتمرغ مفغماً بالروائح وشهوة القتل. يقيم طقوساً في هذا الغسق السحري. متوحداً يودّ أن يطلق هو الآخر.

2

الحلم الأفريقي كيف حضر الآن. قطع كل تلك المسافات من أسمرة إلى دمشق ولم تُعِقْهُ ذرات الفراغ. جاهداً يحاول إسماعيل

أن يتذكر. حتى التفاصيل الصغيرة للحوادث والجسد الأبنوسي، ينبغي ألا تفلت.

بيت منفرد بين الأدغال. بعيد عن المدينة. المرأة تقود السيارة وهو بجانبها. غريب ومتوجّس، والراديو يرسل موسيقى أغنية جنسية عذبة، والبراري موحشة تفيض توقعاً. البط يهجع تحت ذوائب العشب في الظلال المستورة، والرجل مأخوذ. في الخلف أسمرة. مدينة أفريقية الجنس يُشم فيها كالعطر، يؤكل كالأرغفة الحارّة. لكن هذه المرأة شيء خاص مختلف. ليست خلاسية ولابيضاء، تشمّ روائح الغرباء، تميزهم، ثم تنفرد بهم في منزلها البرّي، المعزول.

موسيقى. ويسكي. ابتسامة ساحرة، وعينان تومضان ببريق يرتعش. حافية تخطر فوق أرض البيت المرصوفة بالخشب. والدنيا غسق. هي غسق، ورائحة الصندل تعبق في الحجرة، تكاد ترشح من الجدران والأرض والسرير. ثم التوقع.

طقوس.

ـ سجّلْ لي أغنية خذها معك إلى دمشق!

أدار المسجلة وسقته من كأسها. من الحافة التي تحتسي منها. أحس طعم الريق فارتفع مد الخفقان الداخلي. قسمت موزة ناولته النصف، وتناولت النصف الآخر. بهدوء مضغ وهو يتملى البريق المشع من غسق عينيها. كانت شفتاها تلمعان كموجة في فجر مشمس، ولم تكن تضع طلاء، وإذ لفّت ساقاً فوق أخرى انحسر الثوب فانتشر من عري الفخذين وهج لجسد صلب، حار، ناعم ومتوحش.

وراحت تغني أغنية أفريقية راشحة بالجنس.

آه. انقطعت في منتصفها، وكزت التي ستضع طفلاً ساحقة

أسنان فكيها، ثم نترت رأسها فارتطم بجدار السرير الخلفي. راح العرق يتفصد من كل جسدها، وارتفع الطلق.

صاحت القابلة: اعطوني وعاء.

جو الغرفة يفيض قتامة والهواء منهك. والمرأة المفتوحة الساقين، تئن أنيناً حجرياً يخرق الجدران والأبواب الموصدة. وعلى المنضدة كانت هناك مشارط، وأقمطة، وأوعية نحاسية، أدوية وأكفان بيضاء.

اسماعيل أم يوسف أم عيسى؟

ـ من الذي قال لأبيه: يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين؟

ـ يوسف بن يعقوب.

وازدادت التراتيل الكنسية في صباح ذلك الأحد.

توغل اسماعيل بين القصب والشيح. كانت الأرض طرية دبقة تحت قدميه، أحسها تختلج كالبيض النيء غبّ انحسار النهر. وبصعوبة راح يسحب قدميه فوق الطمي. وجاءه نباحُ الكلب من بعيد فناداه. أرعشه صفير أفعى داسها فانسربت بين الشيح. وعلى نحو لامع بَرَقَت في ذهنه كلمة أبيه: الحية امرأة غضب الله عليها فمسخها أفعى. ومن أجمة وثب ثعلب، أحدث جريه صوتاً أجش موحشاً. شيء ما في الداخل بدأ يختل، وراح البط ينفر مذعوراً من أماكن قريبة منه وبعيدة، حيث يجري الكلب ولايراه.

الفجر اللعين متى يطلع؟

باغتَهُ رعب البراري. هذه الوحشة لليل جهم ممتد بلا حدود. ثم هذا الركام من الغيم الكالح. والرعد.

خلفه كان القصب والشيح ممتداً كهذا الليل، وأمامه كان القصب والشيح منتصباً كالأذرع الآدمية. كثيفاً راح يلطم وجهه وصدره. يعرقل سيره والأرض تهتز. ولمّا يُطلق طلقة بعد.

ـ متى تسافر؟

ـ صباحاً.

ـ ألن تعود إلى أسمرة؟

ـ ربما يمضي زمن طويل قبل ذلك.

أشعلت له لفافة. مصّت منها ثم ناولته، وابتسمت بخبث

ـ أسمعني أغنيتي.

وأدار المسجلة.

سقته من كأسها، وشربت. بدت الغرفة عائمة بالدخان ورائحة العسل والجنس.

دوار. رجل وامرأة غريبان في عالم غريب، في غرفة معزولة، وأغنية جنسية، وبين العينين جسر من وجع وحزن.

ـ هل عرفت امرأة قبلي؟

وسألها إن كانت قد قرأت فرويد فأجابت بالنفي. وسألها عن طفولتها فصمتت، وصمت.

ـ لماذا تُكثر من الأسئلة؟

واستطردت: أنت رجل سياسي.

رنا إليها بتركيز ورسوخ، ولم يجب.

ـ ولديك مهمة في أسمرة.

ـ نخبك.

ورفع كأسه. احتسى على مهل بينما أفرغت كأسها. وقبّلها.

ـ مهمتي أن أنام معك.

وضحك بغزارة.

ـ قبل الفجر سيأتي رجل ويأخذك معه.

بطيف ابتسامة مسح كآبتها: لاتبتئسي. أنا سائح ولاصلة لي بمثل تلك الأمور.

ـ الغرباء هنا مشبوهون. وأنا مكلّفة بتسليمك.

مدّ لها ذراعه: دعينا نرقص. وقاما.

موسيقى غابية مشحونة بالمطر والحزن، شالت. والتحما فوق أرض الغرفة. بحنان شهوي ضمها. أفغمته رائحتها. رائحة أنثى حارّة تلتحم بجسده داخل ليل موحش، في بيت وراء تخوم المدينة.

طقوس.

حلم. يقظة. وبين الحلم واليقظة خيط شفاف يُحس ولايُرى. له رائحة كالموت أحياناً، كالجنس، كولادة شيء من تحت جلد الإنسان أو جلد الأرض.

الأفق يلمع ثم الرعد. طبول أفريقية متوحشة داخل غابة مظلمة، موحشة هي الأخرى.

دوار. الغرفة تدور والموسيقى والروائح. شفة آبنوسية حارة التصقت بشفتيه. ضغطت. ضغطت أكثر.

ـ أخي ضابط أمن في الجيش الأثيوبي.

وانهمرا على السرير.

غنّت الغبطة: أنا ريح شرقية قادمة من وطن الحب والموت أخترق النفس والجسد. أنشر الروائح ثم لاأكون.

ومن سماء تجيش بالغضب، انهمر المطر. مطر محمل بغبار له رائحة الغِرين. وعلى اسماعيل هبت ريح مشبعة بفزع.

أحس من لطم القصب والشيح، والريح والمطر بأنه على وشك العمى، وأنه في تيه وسط عالم موحش. وبدأ جسده يرتعش.

موسيقى الحجرة حزينة جنسية. والمرأة المتألقة جنساً مقبولاً راحت تتأوه، مختلجة بإيقاعات جسد يخترقه برق. بدا الفضاء مضمخاً بالروائح.

طقوس أخرى، واهتز أكثر نواس الزمن.

ارتفع الطلق وصاحت التي تتمخض جنساً مرفوضاً صيحتها الأخيرة، ثم دخلت الغيبوبة.

استعدت القابلة.

وارتفع النشيج الكنسي وسط رهبة الفجر.

وثبة. تلتها أخرى. هارباً من عنكبوت الشيح والقصب. هارباً من المطر والريح وصوت الرعد.

واحتضنه الطمي.

ـ اسماعيل أرى في المنام أنني أذبحك؟

ورفع قدماً فغاصت الأخرى أكثر. بعنف رفع الأخرى لكن الثانية غارت. غارت. حاول الاتكاء على البندقية فغابت في رحم الطين.

ـ الطمي الخادع. الطمي القذر.

وبدأ طلق آخر. شدّ بقامته. بكل طاقة الإنسان ورفضه للموت، ونَهَد إلى الأعلى. سحب قدماً رماها إلى الأمام، وحاول سحب الأخرى. طمي آخر ابتلع الأولى. ثم ابتلع الثانية.

صيد. بطّ مد الأفق يخفق فوق رأسه. صوته يدوي. وشال بعزم. بضراوة وحش محاصر رافعاً رأسه نادهاً: يا إلهي!

وسمع صرير قدميه وهما تغوران: اسماعيل. أين قوتك؟

ورفع صدره ناهداً نحو الأعلى فمال، اختلّ، ثم كبا فوق الطين. وعلقت يداه. غاصتا. خانتاه: يا إلهي.

ـ من التراب وإلى التراب تعود.

وعلى مهل راح الطين يمتصه. وصل الركبتين. اختلج. شدّ إلى الخلف. وراحت يداه تنسحبان ببطء من دبق الطمي. سقط على قفاه منكسراً. وهو مشبوح على ظهره نده أيضاً: يا إلهي أين أنت؟

وقام.

كان الآن واقفاً كالصقر وسط الطمي الذي غطى أعضاءه التناسلية. شعر بصقيع الغِرين يخترق روحه ثم يسكن في الوتين. وبهدوء وسلام راح يغور. وسط ظلام العالم راح يغور.

شارف الطمي عينيه المتجمدتين، ولم يكن سعيداً ولافرحاً. كان الآن منهكاً مستسلماً. ورأى السماء تصحو ورأى القمر والنجوم. أحد عشر كوكباً. اثنا عشر. كواكب مباركة، تسبح في فضاء نيلي فسيح. وكان هناك، بعيداً بعيداً ربه الذي ناداه.

من بعيد جاءه زقو البط، فرحاً مذعوراً، كزقو الطفل الذي هبط الآن من رحم المرأة، كالإيلاج الذي تم الآن بين جسد المرأة الفرح وجسد الرجل الذي سيسلّم في الفجر.

وغمر الطمي العينين، فأغفى.

سبحان الحي الباقي الذي يولج الليل في النهار والنهار في الليل. الذي يخرج الحي من الميت والميت من الحي. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون.

دمشق 1969

العكر

العكر

«غيلان الدمشقي أحد فلاسفة المعتزلة الأوائل. قال بفكرة الحرية والاختيار معارضاً فكرة القضاء والقدر.

هاجم ظلم الأمويين وثراءهم على حساب الشعب فحقدوا عليه. ولّاه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز شؤون المسلمين فنادى فقراء الناس: «تعالوا إلى مَتاع الخونة إلى متاع الظَلَمة».

وراح يوزع خزائن الأمويين عليهم. في خلافة هشام بن عبد الملك قُطِعت يدا ورجلا غيلان بأمر من الخليفة لكن غيلان استمر يهاجم ظلم وثراء الأمويين قائلاً فيهم: «قاتلهم الله. كم من حقٍّ أماتوه، وكم من باطلٍ قد أحيوه، وكم من ذليل في دين الله أعزُّوه، وكم من عزيز في دين الله أذلوه». فوصل الكلام الخليفة فأرسل إليه من قطع لسانه فمات فكان أول شهيد معتزل».

1

قال الجد لحفيده الطفل: وخاطب الوالي الشاعر الفتى: بيدك حملتَ كتاب قتلك أيها الشاعر. ثم تلا عليه الكتاب الذي حمله من الملك وطلب منه أن يختار ميتة.

وتروي السيرة يا بني أن الشاعر الفتى طلب أن يؤتى له بزقّ من الخمر، وأن يُحبس في غرفة حتى الصباح. جاؤوه بزق الخمر وحبسوه في غرفة معزولة وأرتجوها عليه.

وسأل الطفل جده لاهفاً: وهل قَتَل الوالي الشاعرَ الفتى ياجدي؟

قال الجدّ متابعاً: في منتصف الليل بعد أن هجع القوم، فَصدَ الفتى شريانه وراح يحتسي من الزق وهو يتأمل دمه النازف ويقول الشعر حتى مات.

ولما أصبح الصباح أرسل الوالي يطلب الشاعر فوجدوه ممدداً بين دمه وخمر الزق المسفوحين على الأرض. قرؤوا على جدار الغرفة أبياتاً من الشعر كتبها الشاعر بدمه. غضب الوالي من الأمر وطلب أن يؤتى بالشاعر الميت وأمر جلاديه أن ينفذوا فيه حكم الإعدام ميتاً، ثم يعلقوا جثته على أبواب المدينة.

بحزن سأل الطفل جده: ولكن ألم تقل لي يا جدي بأن الله أوصى الإنسان رحمة بأخيه الإنسان؟

تنهد الجد العجوز متعباً: أجل يا بني أجل. لكن الإنسان ظالم بطبعه وحقود. يضيق بنور الحق حتى يصير كخرم الإبرة ويمتد بظلام الباطل حتى الغرور والقتل.

وصمت الجد ملياً ثم قال: ألم تسمع بأخبار غيلان الدمشقي ياولدي؟

ـ ما أخبار غيلان يا جدي؟

ـ تكفيك اليوم حكاية الشاعر. هيا إلى النوم وغداً أروي لك خبر غيلان.

في الصباح مات جدّ الطفل طاوياً معه حكاية غيلان وسائر الحكايا التي لم تُرو. ومنذ ذلك اليوم افتقد خلدون أنس الليالي.

من ريفنا القاسي نبت خلدون، في قرية تشبه معظم القرى الأخرى. بيوت من طين وأزقة عفنة وحوانيت، فيها مدرسة وجامع ومخفر للشرطة، وفيها ناس ثرثارون ونمّامون وقُساة.

قبل أن ينمو خلدون ويُطرد من بيته والمدرسة، كان طفلاً كسائر الأطفال لكنه بعد ذلك صار شيئاً غريباً، حزيناً، يروي كجده حكايا عما يراه ويسمعه في القرية.

أم الطفل وأبوه على قيد الحياة، كذلك بيته. لكن خلدون بعد أن مات جده طُرد من البيت والمدرسة في يوم لاهب من أيام حزيران ونما وحيداً، بيته البراري والخرائب، ودثاره الليل والريح والوحشة العارية.

نسجوا عنه قصصاً غريبة، وسموه القط المتوحش، وقالوا بأنه يسرق الكحل من العين، وإذا ما انفرد بطفل لايرعوي عن مصّ دمه.

تحاشاه الأطفال: خلدون ولد قذر لاتقربوه. ونبذه الكبار فازدادت غربته.

قالوا بأن روح جده تقمصته، وحكاياه القديمة تناسخت في روحه الشريرة. أينما حلّ ينشر الفضائح دونما خشية من الله أو تقاليد الناس. عن الشيوخ يحكي وعن المرابين، يهزأ من معلمي المدرسة ورئيس المخفر، وبجرأة مراهق يتحدث عن الخيانات

الجنسية: الأقوى هو الذي يسود في هذه الدنيا وللأقوى نهاية.

يقول ولايخاف.

ولو سألت ذلك الطفل الناضج ماذا تعني بالأقوى؟ لفاجأك بجواب غريب: الذي يباغت وهو خائف.

ـ من أين تعلمت هذه الحِكم؟

ـ من الدنيا أمّ المدارس.

2

ذات ليلة يستيقظ الطفل مذعوراً في فراشه. بين الحلم واليقظة يرى رجلاً عاري الصدر راكعاً فوق أمه وهو يلهث. تنتابه حالة رعب فيصيح بالرجل: ما الذي تفعله بأمي؟

مرتعداً ينتفض الرجل العاري. يتناول عصا سنديان وُكِئت على حائط طُلي بالحوَّار. ينهال بها فوق الصبي نصف النائم في فراشه، ونصف المستيقظ: كلب. ابن حرام. خذ. هيا. نجس خنزير. هيا اخرج من بيتي.

باللحاف الوسخ يحاول الطفل أن يحتمي. الضربات تهوي كالمطارق، يحسها تسلب روحه من بدنه فيتكوم كخرقة. تستمر الضربات من يد فقدت صوابها، والطفل يئن، يئده بصوت جريح، والرجل شبه العاري ماينى يصيح: هيا. ماعاد لك خبز في بيتي.

ويتململ الطفل موجعاً.

بعد أن تعيا يد الأب يقذف العصا. يسحب الطفل من فراشه ويجره فوق الأرض وبركلة من قدمه يرميه خارج البيت.

القرية ظلام. سكينة وصمت. والعالم في رأس خلدون

خذروف يدور، وهو المنهور في أزقتها يسري. نصف عار. شبه غائب عن الوعي وفوق لحمه الغضّ بصمات العصا الأبوية السوداء.

«إلى أين؟».

ويمضي. لابيت بعد اليوم. لادفء. لا أب. لا أم. البراري والساحات صارت المأوى. وفي تلك الليلة تعانقه الرعشة والصقيع الليلي في عبِّ شجرة.

في قرية خلدون كان الناس يحبون ويضحكون ويخونون. يصلّون ويسكرون بطمأنينة رضية تحت خيمة من أمان. كل شيء كان يجري بطاقة الاستمرار ونسيان زمني اعتاد نفسه: باسم الله مجراها ومرساها.

خلدون وحده كان مؤرّقاً. لم يكن يضحك ولايحب ولايخون ولايصلي ولايسكر. من الجميع مُزدرى، كالشمس كان يرى الدنيا ويحكي كما تحكي الأشعة. لكنه كان يغني.

في أعماق نفسه يحس بأنه شبيه غصن بُتر عن شجرته، وأن نفوس الناس إذا قَسَتْ أقطع من سيف مسنون.

حاولَ أن يعمل حمالاً وصبي مقهى وبائع عربة يد وأجير مزارع، وفي كل مرة كانت كراهية الناس تطارده. أبوه يقول عنه: إنه سارق ويسطو على الأعراض. والناس يَشُون: الذي طرده أبوه والمدرسة سيء لايؤتمن. حتى الأطفال من رفاق المدرسة كانوا يتحاشونه ويحرّضون على ضربه. واستمر الطفل كلما طُرد من عمل يبحث عن عمل آخر، وعندما يشعر بتفاقم ضغينة القرية عليه يهجرها زمناً باحثاً عن عمل، ثم لايلبث أن يحمله حنينه إليها. بينه وبين قريته أقام الزمن حباً خفيّاً يشبه عشق الطائر لعشه الذي داهمت فراخه أفعى.

في حر الشمس يحلو له أن يتكئ مختفياً وراء حائط. يرنو إلى أطفال المدرسة الخارجين بهرج. يتأملهم إذ يتبددون في الساحة صارخين كأرانب طال حبسها. ينقسمون زمراً، يلعبون الدحل والاستغماية بغش مستور. خفية يدخنون، وعلى الأرض ترسم بعض الزمر صورة الموجِّه. يتقدمون واحداً تلو آخر ويبولون عليها. زمرة أخرى تغافل عين الموجِّه خلف بناء المدرسة. قائد الزمرة الملقب بتامبو يتقدم من الجدار يرسم شكلاً يوحي بجسد امرأة. قسم من الزمرة يراقب حركة الموجِّه والقسم الآخر يتقدم، يعانق المرأة بشغف يلتصق بها ويبدأ التأوه والهمس. كل طفل يختار طفلته من مدرسة البنات المجاورة ويجسدها في الصورة المرسومة. هكذا بالتناوب حتى يقرع الجرس. فجأة تعود إليهم ملائكيتهم وبكل وقار الأطفال وهدوئهم ينتظمون في الصف.

يتذكر خلدون كيف طرده المدير ذات ظهيرة. تامبو وشى به زوراً: هو الذي اخترع مشهد جسد المرأة. قال لنا: إنه تعلّمها من أبيه. يومها قرر مجلس المعلمين طرد خلدون: رجل مفسد في ثياب طفل.

3

ويكون الفضاء ساكناً. صهد الشمس يطعن الرأس مثل خنجر مسموم، ومياه المستنقع راكدة، على سطحها تسطع الشمس كسيف بدوي سُنَّ للثأر. ومن الأفق لاتأتي طيور غير هذه الخطاطيف السود تنقض سافّةً المياه، محاذية الطحلب، وكرؤوس الرماح تنشب في فضاء صحو.

- خلدون أمستيقظ أنت؟

- أجل يا جدي. أجل.

حكاية قديمة رواها الجد عن صياد خرج يصطاد الوحوش فعاد خائباً في منتصف النهار. التقى بمستنقع ضحل تؤمه الخطاطيف الفرحة البريئة فراح يقتلها بحقد.

وتمر الأيام فتتبدل أحوال خلدون. يصير الطفل أليف البراري، يحتشّ عشب القفر إذ يجوع، ويصير الناس غرباء في عينيه. يغني ويروي حكايات، وفي الليالي المقمرة يسري باتجاه البحر، لكن حكاية الجد عن الصياد وغيلان الدمشقي تظل تؤرقه وتتنامى في وعيه وأحلامه.

في سهرات الصيف والشتاء يسمر الشباب في المقهى المطل على البحر. يحتسون الشاي والخمر ويثرثرون في كل أمور الدنيا. يلعبون الورق، وفي لحظات الملل يبحثون عن خلدون ليرفه عنهم بحكاية.

يسأله أحدهم وهو يبتسم: يا الله. هات يا خلدون آخر فضيحة! يتناول سيجارة. يشعلها ويغبّ منها نفثاً عميقاً، يبتلع معظمه ويزفر ماتبقى في فراغ المقهى: كان ياما كان يا شباب. ويبدأ بسرد حادثة المعلم الذي فاجأه يعري تلميذته في حقل مزرعة المدرسة.

يمثّل لهم كيف كان المعلم يرتعش وهو يتلفت خشية أن يُداهم. وجهه في لون الجمر وعيناه اتسعتا والتلميذة بين ذراعيه تختلج كحمامة بين كفيّ عقاب.

من أعماقه يضحك وهو يصف حركة أصابع المعلم تفك أزرار سرواله، وهو يراقبه لاطياً في زاوية السياج بين سنابل القمح. وإذ يصل خلدون إلى حالة التطويق والضم والتأوه، وبداية الانبطاح، يشير بكلتا يديه وهو يطوق الفراغ: هو... ووه... ويهبط عليها كالجمل الهائج.

باستطراد ممتع يسأل خلدون الحضور إن كان أحدهم قد رأى جملاً هائجاً، وإذ يجيبون بالنفي، يسرد لهم كيف رأى الجمل الهائج في إحدى رحلاته مع البدو: عندما يهتاج الجمل يا شباب تنطفئ الدنيا في عينيه فلا يرى غير فريسته. عيناه تجحظان وتحمرّان كجمرة نار. كمجنون يعدو خلف عدوه فإما يصله أو ينفجر قهراً. هكذا كان صاحبنا المعلّم.

ـ وصل بُغيته يا خلدون؟

بتجربته يدرك أنه قد شدَّهم الآن، وأنهم سيطردونه بعد أن تنتهي نشوة الاستماع، فيبدأ معهم لعبة التعذيب. يطيل الوصف شارحاً تقصف السنابل وصدى التأوهات، ثم انتشاءه هو بالوضع اللذيذ. إذ يسألونه بضيق: إيه وبعدها. التذذت؟ يهز رأسه ساخراً ثم ببرود يجيب: هيه. هو يأكل اللحم وأنا المرق! يا حيف، إذن أنا لست خلدون.

بعد نفث طويل من سيجارته، يشرح كيف وثب عن السِّياج. صارخاً وهو يبتعد كالريح: وي... ويع... هو... هو... وفي غمضة عين يندس بين الأطفال مشيراً نحو حقل القمح.

ـ كذاب.

يقولها تامبو من الشرفة. يتوعده ثم يثب مختفياً في أزقة القرية.

بعد ان تكون الحكاية قد أفرغت شهواتهم ينهرونه: تامبو سيكسر رأسك يوماً يا ديوث. هيا. هيا. كان أبوك محقاً يوم طردك.

وفي أخريات الليل يتدحرج عبر الأزقة، مارّاً بما تبقى من حوانيت القمار، يتلصص من خصاصاتها، مستمعاً إلى آخر

إيقاعات الكفر والشتائم، رانياً إلى الوجوه الصفر الكظيمة وقد احتقنت بالكراهية وسوء الحظ.

على غير توقع يدوي صوت خلدون في أعماق الليل النائح فوق الجميع بالأغنية الأثيرة إلى قلبه:

خاين يا دهر ماعندك عدالي حبيبي الكنت حبّو صار عدالي

بعد ما كنت عنقوداً عدالي دبلت وكسّر غصوني الهوا

وإذ يُشَقّ باب الحانوت، ويطل شبح صاحبه شاتماً مهدداً يكون الطفل قد سلت نحو الوديان باتجاه كهفه.

4

يشعل خلدون عود ثقاب وهو يهم بالدخول، ثم يشعل آخر باحثاً في جوانب الكهف عن عقرب أو أفعى. يفتش سريره المكون من أكياس خيش وخرق تحتها كومات من قش، وإذ يطمئن يستلقي بوداعة في الظلام التام.

قبل أن ينام يعبر على شاشة تداعياته شريط حياته. حكايا جده القديمة عن الشاعر الذي قتله الملك لأنه هجاه، وحكاية المستنقع والشمس والصياد والخطاطيف. في الأعماق تتلون الحكاية الأخيرة. تصير هاجسه الدائم وإذ يعجز عن تفسيرها يتأسى مدندناً مقطع أغنية حزينة، وفي صدره يشيل نحيب خافت مكنون لايرتقي نحو عينيه. يظل هناك في الأعماق التي حجّرها الاغتراب. بعد حين يرسو خلدون في نوم عميق.

قبل الفجر تظهر أفعى سوداء. تسعى نحو يديه. تسبح فوق قدميه متسللة تحت ثيابه، ثم بهدوء ترتقي فخذيه العاريين ومابينهما. يحس حراشفها الملساء تدغدغ لحمه، ويشعر بزحفها الذي وصل بطنه فصدره. قرب الرقبة ينتصب نصفها. رأسها في

مواجهة أرنبة أنفه. نأمة أو تنفس وتكون النهاية، فيتحول إلى حجر والأفعى تربض فوقه. ومضة. وينسى الأفعى فتبرق في مساحة الظلام صور كالأطياف. أطياف بشر وحيوانات وشجر تمتزج مع كتابات قديمة لايعرف قراءتها. إشارات تشبه الطيور التي وصفها جده. تشبه الخطاطيف لكنها ليست هي. تتطاول، تستدير، ترتفع، تنخفض. تُصدر أصواتاً مفجوعة كأنما هي في ضيق، أو أنها تُذبح. بعد حين يراها تهوي في حفرة سوداء محدثة وهي تقع أصواتاً شديدة الخفوت. الأصوات ليست أصوات الخطاطيف. أصوات بشرية يسمع صداها داخل الحفرة. الدنيا كأنها في حالة حرب. يتمنى لو يستطيع إزاحة هذا الظلام الراسخ. الظلام الضيق ليرى. الأطياف تتنامى وتتغير والظلام عميق. أطفال وطفلات عرايا في أوضاع جنسية. ليسوا أطفالاً هم تارة طيور وتارة حشرات صغيرة يطارد بعضها بعضاً، لاتلبث أن تنزوي وراء تَلع التراب. الناس والطيور فزعون من شيء ما غير مرئي وهو مقيد لايستطيع الحركة ولا الصراخ. فجأة يرى كل شيء. الناس والحيوانات والطيور وقد حُشِروا في مكان ضيق موحل. يحاولون الهرب لكن الوحل يشدهم فلا يقوون على الحركة. يراوحون في أماكنهم مصدرين أصواتاً غريبة. الأفعى تصير في ضخامة شجرة جميز قديمة تميل قليلاً نحو الناس المحشورين وإذ يصل فمها المفتوح قرب رؤوسهم ينتفض خلدون.

مذعوراً ينهض. يفتش الكهف بحثاً عن الأفعى فلا يلقى لها أثراً. فيتذكر.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تداهمه فيها مثل هذه الكوابيس. مع الزمن ألفها، غير أن الأفعى ظلت تخيفه.

في الليالي التي تلَتْ بدأ خلدون يتحاشى الكهف. عرفته سطوح

البيوت ورصيف المدرسة وقباب المقبرة حيث يتوسد أولياء القرية الصالحون.

واستمر يسرد الفضائح بلا خوف.

5

على المقهى المطل على البحر كان يداوم أحياناً. في الليل يلتئم شمل الشباب. في السياسة والدين والجنس والخمر والقمار والحرية، يحكون. يلتقط أحاديثهم، وإذ يملّ ينحدر صوب البيوت والحوانيت والساحات، يُنصت ويختزن مايرى ويسمع ثم يغادر الناس وهو يغني.

في إحدى الليالي تآمر الشباب عليه فأسكروه. في أعماقهم كانوا يدركون بأنه طفل غير عادي، وأن مايرويه يثوي في أعماقهم لكنهم لايجرؤون على البوح به، فكرهوه وأحبوه مغلّفين حبه وكراهيته برداء من الهزء والضحك، والحزن الخفي الضامر.

في تلك الليلة شرب حتى دارت الدنيا في عينيه. شعر بجسده خفيفاً يمكنه أن يطير، ولأول مرة تجتاحه غبطة لانهائية. ببصره شبه الزائغ تفحص الحضور وتفقد الشرفة.

سأل الحاضرين: هل الأفعى هنا؟

- من الأفعى؟

- زلمة رئيس المخفر وجاسوس المعلمين.

- تامبو. كاسر رأسك؟

- رأس خلدون يكسر. أما حكاياه فستحكيها الريح.

تنطع أحد الشباب: ولايهمّك خلدون نحن خلفك. تامبو كلب جبان. هات ماعندك.

فرحاً غنى: خاين يا دهر. وإذ وصل الشطر الأخير غيّره:

الأرض للحب مفتوحاً عدالي ونجم خلدون من صغرو انطفا

خيل إليه بأنه لمح طيف كآبة ارتسم فوق الوجوه. استمر الطيف بضع ثوان ثم انفجر ضحكاً ومرارة وسخرية. أحس خلدون كأنه خان نفسه. وسمع من يعترض على نهاية البيت. قليلاً وجَمَ. اهتزت أعماقه أسى. بكى من داخل. قال: أخطأت سامحوني.

طلبوا منه أن يروي فضائح. الفضائح أفضل من الغناء. فجأة ينفجر خلدون بضحكة غريبة. يتذكر الشمس والخطاطيف والمستنقع. وكالبرق تعبر شظايا من الحلم.

ـ كان يا ماكان يا شباب...

ويبدأ يروي حادثة إمام القرية الذي سرق ليرات جدته الرشاديات. كانت الليرات الذهبية أمانة وضعتها الجدة في حوزة الإمام أيام جوع سفر برلك. بعد سنوات طلبتها لكن الإمام الجليل أنكرها. بأجداده وأولياء الله ومحمد النبي أقسم كذباً: هللوب... وابتلعها ثم تلا فوقها آية ليسهل هضمها. وهو يترنح من السكر أقسم بقطع يمينه إن كان هذا الإمام من ظهر أبيه. وإذ سألوه: من ظهر من يكون إذن؟

قال: من ظهر سلالة سلطان عثماني اسمه رشاد.

انتابتهم غاشية ضحك.

اغتنم فرصة استغراقهم في الضحك وراح يحكي كيف ينقل تامبو ليلاً رشاوى رئيس المخفر من الدجاج والبيض واللبن والقمح من بيوت التجار والمزارعين. وروى حادثة زوجة المختار التي رآها تخرج ليلاً من بيت رئيس المخفر وهي محجبة مذعورة، وكيف لمحت شبحاً في الليل كان هو فتعثرت بحجر وسقطت فشُجّ

رأسها: يا شباب إذا كنت كاذباً اقتلوني. غداً إذا مرّ أحدكم بها فلينظر إلى جبهتها المعصوبة. طبعاً عندما سألها المختار: مابك يا أمينة؟ قالت له: كنت عائدة من زيارة ضريح سيدنا الشيخ جعفر بن نبهان واصطدمت بعتبة القبة. قدّس الله سره.

قدّسوا يا شباب قدّسوا. يا الله. كأس القداس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجِنة والناس. يرفع كأسه ويصفيه. موجة من ضحك ترتفع. تضطرب مع موجات من خوف وتوجس.

خلدون ملك السهرة. يسبح فوق رؤوس القوم. قيثارة الفارابي التي تُضحك وتُبكي وتُغضب وتنيم.

أحد الجالسين يسأل: خلدون، يخرب بيتك. وصلت فضائحك إلى السلطة. ألا تخاف من السجن؟

يسأل بدوره: كلب السلطة موجود؟

فيجيبونه بالنفي.

منتشياً يهز رأسه كأنما دخل الآن حلقة ذكر فيتوهج: أخاف.. مم أخاف؟ ماذا أملك حتى أخاف؟ الأراضي الشاسعة التي لاتغيب الشمس عنها. القصور والفنادق التي ورثتها عن جدي. سياراتي. زوجاتي. المناصب الحكومية التي أتقلب فيها وأرتشي منها. أم الذكريات العذبة؟ أنا خلدون العابر في هذه الدنيا. الأرض كلها فراشي والسماء غطائي. لاحدود ولاقيود. أينما يطيب لي المقام أقيم. عصفور مهاجر في دنيا الله الواسعة. رفيق الشمس والليل ملكي. أنا والريح صحاب من يوم ماطردوني من البيت والمدرسة. بيني وبين البحر والقمر ألفة قديمة. الذي لايملك شيئاً لايفقد شيئاً. الله يسامحكم بكل هذه الممالك الزائلة.

ويصمت. يشعل لفافة. الصمت أفعى تقف في مواجهة أرنبة

الأنوف والأفواه المغلقة، وخلدون صار الآن كالرعد: صحبة الطبيعة والوحوش ولاصحبتكم. منكم ما جاءني غير البلاء يا دود المستنقعات. صدق جدي يوم قال: يأتي زمان غريب يا خلدون يصير الناس فيه غير الناس والدنيا غير الدنيا. زمن لالون له ولاطعم رائحته كرائحة الجِيَف يصير الكذب فيه صدقاً والهياج والقوة عقلاً والظلام نوراً. عالم هو إلى عالم الحيوان أقرب. القوي يفترس الضعيف، والغني يقتنص الفقير، والجاهل يحكم العاقل، والجبان يسوس الشجاع، والمرأة تمتطي الرجل. زمن يقول الناس فيه: السكوت من ذهب. واليد التي لاتستطيع عضّها قبّلها وادعُ لها بالكسر. وإذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا. والعين بصيرة واليد قصيرة. وفي بلاد العميان ضع على عينيك عصابة.

وفي تلك الليلة أضاع خلدون صوابه. هاجم الشباب ووصمهم بأنهم جبناء وأنذال، وأن الأفعى رغم سمها الزعاف أقل أذى من سمومهم الغافية في صدورهم، وقال بأن الذي يرى الباطل ويستمر فيه، نذل مرتان: الأولى لأنه رآه وسكت عنه، والثانية لأنه لم يرفع سيفه في وجهه. مثلكم كمثل الصياد الذي قتل الطيور البريئة إذ عجز عن صيد الذئاب والخنازير.

ها... ها... ها... ونجم خلدون من صغرو انطفا.

ليلتها ضاقت صدورهم فانفجروا في وجهه. شتموه، وضربوه، وقذفوا به على درج المقهى وهو متعتع من الخمر.

6

من الفجر خبّ فوق الأراضي البور. شمس حادة أشعتها كأنياب الضواري. ظمأ وإعياء ولات صيد. صمت من الداخل يشبه

صمت البحار. ظلمة موحشة تنفرد بنفسها في عالم ضوضائي حنق.

كجناح هذا الطائر المخترق أشعة الشمس، تبدو تلك الأعماق. حركة صغيرة في الزمن والمسافة وينشقُّ الكون عن نهار تعجز العين المجردة عن حصر ألوانه.

في الريح جامح طائر الربيع. يشطر الفراغ بجناحيه المبسوطين، مزهواً متلوياً فوق البحيرة كفارس يمخض الصحراء. أخيراً يلوح الماء.

فضيّاً تحت الشمس يبرق، حوله شجر وظلال. في الأفق تتراءى الطيور، تمارس ألعابها، تروح وتجيء منتشية فوق البحيرة. يخبّ أكثر. هارباً نحو الظل والماء.

تصير البحيرة مستنقعاً غطاه طحلب قديم. كحيوان ظامئ يتمدد ويشرق الضحل العكر. إلى جذع شجرة يستند بعد أن وصل عالم الأمان. يراقب الطيور. كالسهام تعبر الخطاطيف بينها وخلفها سنونوات صدرها أبيض، خائفة، مغتبطة وهي تخرق إهاب الريح. أمامه تعبر. يسمع رفيف الأجنحة. يرى مناقيرها والذنب المنفرج. تنقض ملامسة سطح المستنقع، غارفة نهلة ماء، ثم تشيل نحو الأودية في فضاء صاف. ثم تعود. دوران لولبي يرسم خطوطاً إهليلجية ومتعرجة عبر فراغ تحته مستنقع راكد. لعبة سيرك تبدو مطمئنة. متفرجها الوحيد المُثار صياد خائب.

عشرة أطفال يتقدمون. يرتدون مراويلهم السود وعلى وجوههم أقنعة، وتامبو يقودهم. بصوت رجل مقبل على معركة.

يصرخ القائد: هاهو. طوِّقُوه.

من خلف الجدران يثبون. جداران عاليان بينهما خلدون.

الأطفال المتشحون بالسواد يحاصرونه من الخلف والأمام. أرض الطريق وحل ومياه محرورة. وخلدون أعزل.

من صوته الذي كان يدوي في الليل: خاين يا دهر عرفوه. فجأة يتهدج الصوت. تقطعه هذه الأشباح التي انبثقت من ضمير الليل الأفعواني. مرة أخرى الأفعى. انقسمت الآن كما تنقسم أذرع أخطبوط يجابه فريسة. الأيدي تلوح بعصي وقطع حديد كلها تبدو سوداء. تامبو وحده يجر فوق الوحل جنزيراً أسود هو الآخر.

خطّاف جامح قاتم كليل جهم، يلف الفضاء كأمير وهو يزقو، والشمس في سمتها الانفجاري. نصف نهار ولم يصطدْ غير السغب والتيه والأشعة والجري.

الأعصاب قنبلة حُلّ حزام أمانها، والخطاف يلهو مبهوراً بفضائه، بهذا المدى المفتوح كصحراء لاتخوم لها.

خلدون محاصر.

يتلوى الجنزير كرقطاء في فضاء أرقط. خلدون وحده الأبيض في مركز الحصار: اشتهِ ميتةً. يقولها تامبو ساخراً.

حوله يتلفت فلا يرى غير المياه والوحل، وغير الأيدي المسلحة، وهذه الأشباح تتقدم باتجاهه.

الأشعة تخطف البصر بوهجها الألّاق. الصياد سيقتل.

ـ أخيراً وقعت يا خلدون. من ينقذك الآن؟

في سره يهجس: ومن أنقذني فيما مضى؟

وفيما مضى كان هناك منفذ. الآن الطرقات مسدودة، وتامبو رجل قاتل في إهاب طفل، ولا سلاح.

يبدو فاقد القدرة على المحاكمة، خطفاً يدرك بأنه أخطأ عندما اختار الغناء في الليالي بدون سلاح.

مافائدة الاستدراك وهم يتقدمون. خبب خطواتهم في الوحل. صلصلة حلقات الجنزير. الرعب الآن هو الحقيقة.

بالغضب امتزج وميض الحقد، فتأرث هياج هوى من طرف الجنزير السائب على جسد الطفل الأعزل. آه. نوَتْ أن تخرج فضغطها. إلى الخلف وثب متحاشياً الضربة فلطم وجهه سيخ من حديد، أحسّه يكوي رأسه. على وجنتيه وضع كفيه، وكور جسده فتلقاه الجنزير ضاغطاً من السرة حتى الكتف الأيسر. عميقاً تأوه وشعر برجليه تصطكّان. وانزلق الوحل تحت قدميه. حاول أن يدفع شيئاً مشرعاً فوق رأسه لكنه أحس بأصابع يده اليمنى تتهشم. سقطت فرفع اليسرى. كانوا الآن في محاذاته. أصوات وحشية. عصي تنهال متناوبة ومتوازية ومتقاطعة، وكان هو في المركز تماماً. في الوحل راكعاً على ركبتيه يحاول أن يحمي رأسه بسلاميات تفرز على مهلٍ دمها الحار. لم يكن قد فقد صوابه حتى الآن. كان يسمع صليل أصواتهم ممتزجة بالخبِّ فوق الوحل، يقتربون، ويتراجعون وهم يتناوبون الضرب. كما كان بإمكانه أن يحصي بين فينة وأخرى عدد الضربات قبل أن يخور ويتهاوى ممدداً فوق الوحل.

الآن بدأ الضجيج يتخافت. أحسوا بأنهم أهمدوه فابتعدوا. عرف ذلك من صوت الخطوات التي تنأى. كانت هناك في زاوية ما من وعيه بقية ومضة، حارة، مضيئة، لمّا تنطفئ.

قليلاً ابتعد تامبو. على عضده لف الجنزير واستوثق من نصفه المقبوض بين أصابع كفه، وكما تهوي فأس من أعلى هوى الطرف المفلت على منتصف الجمجمة المكبوبة الوجه، فدوى من الرأس صوت كالرعد فانبثقت شمس حارة، وانطفأ مصباح الوعي. بهدوء مرتعش تقدم بعد أن رمى الجنزير. أمسك شعر الرأس

الملوث الحار ورفعه فالتقت أربعة عيون. عينان هائجتان وعينان أسيّتان. وسدد الصمت خنجراً.

كأفعى كان الجنزير غائصاً في الوحل. ومن يد الطفل الهائج نتأت شفرة موسى حادة. قَلَبَ الجسد المطروح على ظهره. كان الفم نصف مفتوح. سحب لسان الطفل منه، وبحركة مرتعشة سريعة بتر اللسان من منتصفه. ململة تشبه حركة طائر في آخر النزع، وصوت أنين خافت مبهم، كل ماصدر عن الطفل المصلوب فوق الوحل.

ـ لن يكون بإمكانك أن تروي فضائح عن الناس بعد الآن.

واختفى.

7

وقال الجد: وكان أن اقتربت الشمس يا بني من سمتها العمودي في ذلك النهار الحار، والصياد الخائب هناك على حافة المستنقع، اقترب الخطاف لافحاً وجه الصياد فأحس بمنقاره يكاد ينغرس في عينيه وكان الهياج قد بلغ أوجه في أعماقه. وخيل إليه أن الخطاف يتحداه، ودوى انفجار. على سطح المستنقع هوى الخطاف. اختلج، ثم تمدد بسلام فارداً جناحيه اللامعين فوق أعشاب الطحلب.

وجاءت خطاطيف أخرى، حوّمت فوق الخطاف القتيل فسقطت قربه. حتى الغروب ظلّ الصياد يرمي. السنونوات الصغيرة رماها. وإذ أنهى خرطوشه ورأى إلى المستنقع مفروشاً بأجساد الطيور البريئة الميتة، غمرته غبطة فتنفس بارتياح عميق.

لم يمُتْ خلدون.

في الأيام التي تلت قرأ سكان القرية حكاية المعلم محفورة

على جدار المدرسة. بحثوا عن خلدون فقطعوا يده اليمنى. وبعد أيام قرؤوا حكاية الإمام المرابي محفورة على جدار الجامع. جاؤوا به وأمام المصلين قطعوا يسراه. ومضت أيام فقرؤوا على جدار المخفر حكاية رئيس المخفر الزاني المرتشي منقوشة بخط بارز، فضاق صدرهم وقتلوا خلدون.

بعد سنين من موته مات ناس وولد آخرون. نموا وسمعوا قصة خلدون وتناقلوها. وأضاف الأطفال عليها بأنهم في بعض الليالي كانوا يسمعون أغنية خلدون الحزينة: خاين يا دهر، وصدى حكاياه، عندما الرياح الشرقية تهب، ويبدأ حفيف الشجر الحنون فى صمت القرية يغني.

دمشق 1969

طقوس للعار

طقوس للعار

1

عندما غادر علي الراعي «الصبُوحية» لم يكن يملك مالاً ولا أرضاً. كانت ثيابه عتيقة مغبرة، لكنه بدا فتياً بقوة الصخر.

في سمعه وهو يغادر بيته العتيق، والشمس تنحدر نحو البحر، رنَّ صوت أمه: كن عاقلاً في بلاد الغربة! وإذ تلاشى الصدى، ارتعشت في أعماقه حكمة قديمة كبيته: «العقل زينة الإنسان».

جرى على الطريق الغباري، ثم مالبث أن انحدر نحو السفح، والفرح يزقو بين ضلوعه، ولما أحس بأنه أصبح بعيداً عن الصبوُحية وثب في الفضاء كفحل مغزى فوق مروج خضر، ثم فرد يديه وصفَّق بسخرية فرِحة، مندفعاً كقذيفة باتجاه الحرب.

أمضى علي الراعي طفولة بائسة في قريته. عرف الجوع والعري وأضناه التعب. كما كانت بنات الضيعة يهزأن من أنفه الدقيق الملتوي وصلعته وتأتأته عندما يتحدث معهن.

الآن انتهى ذلك. وانتهى أيضاً الاستيقاظ الباكر لرعي الدواب،

وغابت وجوه الفلاحين الكتيمة المغضنة وثرثراتهم وهم يعودون من السهول، كما ارتاح من قرص البراغيث في البيت المسقوف بالشوك والتراب والحطب والفئران والأفاعي.

ـ «وداعاً أيها السجن القديم الممل!».

همس لنفسه بصمت، ثم لوح بيديه لآخر بيت رآه يغيب وهو في صندوق السيارة مع رفاقه، فأحس انقباضاً محزناً. فجأة رأى نفسه وحيداً مسلوخاً عن موطن طفولته.

فيما بعد، بعد زمن طويل، تذكر علي الراعي أنهم مرّوا بمدن توقفوا فيها قليلاً ثم تابعوا، ولما وصلوا في أول المساء أطلت عليهم أنوار كانت ترقص كالنجوم. وإذا سأل علي الراعي أحد رفاقه عن هذه الكواكب الملألأة قال له ساخراً: هذه مصابيح كهرباء يا غشيم.

دُوهِمَ علي الراعي بمدينة ضخمة كالجبال، وبأبنية حديثة، وسيارات مسرعة لم ير مثلها في حياته كان يفاجأ بأنها لاتصدم بعضها بعضاً، كما يذكر أنه كاد يصرخ وهو يرى نساء سيقانهن عارية.

كان يخجل من الأسئلة خوف الخطأ والسخرية فيتمتم لنفسه: لابد أن هذه بلاد الغربة كما قالت أمي!

عندما وصلوا المعسكر القائم بعيداً عن المدينة، بوغت بأن مارآه قد مضى، كما مضت الصبوُحية، وأنه الآن في الحرب.

كان المعسكر شبه معتم، وإذ وطئت قدماه الأرض، تذكر تراب الضيعة وداهمه حنين أولي خافت.

هو الآن مستلقٍ على سريره العسكري في الظلمة التامة، يحلم بالضيعة والمدن النظيفة التي رآها. الناس والسيارات والأضواء الباهرة. العالم الضخم المتحرك خارج قريته الضيقة الساكنة.

فجأة هوذا يهبُ على صوت البوق.

استغرق خطاب قائد المعسكر ساعة ونصف الساعة عن حب الوطن، والتضحية بالدماء والانضباط الذي ركز عليه وكرره عشرات المرات، مخبراً الجنود بأنهم قادمون على معركة مصيرية وأن عليهم أن يكونوا في مستوى من التدريب واللياقة وإطاعة الأوامر بحيث إذا بدأ الهجوم الكبير يرفعون رأس الوطن عالياً، ويحققون له النصر المؤزر، ثم ختم خطابه بآية مشجعة:

«وإن ينصركم الله فلا غالب لكم».

2

أثبت علي الراعي خلال الفترة الأولى من التدريب كفاءة مدهشة، حَدَتْ بمدربه لأن يطلب له إجازة يمضيها في المدينة.

هاهو مسحور بالأضواء والحركة والأصوات. شوارع نظيفة وأبنية شاهقة وسيارات. ثم هؤلاء النسوة البيضاوات كالحليب.

ـ واه علي الراعي. ماهذا؟

يضحك في سره وهو يتذكر فطوم وزينب وعليا الوسخات الشريرات وهن يتراشقن بالشتائم والبذاءات.

قال له رفيقه: دعنا نذهب إلى السينما!

وبعد شرح معقد من صديقه فهم بأن السينما صور جميلة ممتعة تركض فقال بسذاجة: ولكن أليس مانراه هنا سينما؟

كان مبهوراً والصور تمرّ على شاشة عينيه فلا يكاد يستقر بنظراته على الأشياء. وإذ يرى نموذجاً لامرأة واقفة داخل زجاج مخزن يحدق فيه دهِشاً ثم لايلبث أن يهمس لصديقه: ألا تتعب من هذه الوقفة؟

فيقهقه صديقه وهو يسحبه من زنده، ويمضيان.

في نهاية الدورة فاز علي الراعي بالدرجة الأولى، فمُنح رتبة عريف فخري وأُعطي جماعة ليدربها من أجل الهجوم.

بقسوة خالية من أية شفقة درَّب جنوده. لم يكن يحب الكلام كانت كلمته المأثورة: العسكرية موت وليست لعباً. ترن في آذانهم وقليلاً ماكان يبتسم.

ومذ أُوكلت إليه المسؤولية الأولى والثقة، راح يعمل بدأب وقدوة ومثالية حتى انقطع عن النزول إلى المدينة، وحرم نفسه من أية إجازة. لقد أصبحت الثُّكنة بيته ووطنه وعالمه. لكن الجنود كانوا يمقتونه لصلابته وخشونته فأطلقوا عليه لقب: الوحش.

فيما بعد أدركوا أنهم كانوا على خطأ. فقد سهر علي الراعي معهم يوماً ورووا ذكريات شخصية قديمة، وضحكوا وشربوا الشاي معاً.

وليلتها غنى لهم علي الراعي بصوت جارح حزين «عتابا وميجنا وسكابا» حتى ساعة متأخرة من الليل، وإثر ذلك صار أثيراً لقلوبهم وتمنوا أن يقودهم قريباً في الهجوم.

3

قال قائد السرية ذات مساء لعلي الراعي: علي. أنت ذكي وصبور لماذا لاتكمل دراستك؟

فأجاب بدهشة: دراسة ماذا سيدي؟

- تدرس في الكتب وتنال شهادة.

- ولماذا الشهادة سيدي؟

- الشهادة تُدخلك الكلية العسكرية فتتخرج ضابطاً.

حدق في وجه القائد ملياً ثم عد على أصابعه: سنوات الدراسة.

وسنوات الكلية الحربية. وسنوات التدريب. قال للقائد وهو يهز رأسه: واه سيدي. كل ذلك الوقت سيمر حتى أحصل على رتبة ضابط؟ لاياسيدي لا. يكون الهجوم الكبير قد صار وأنا ما أزال في المؤخرة.

قال القائد: لكنك تفكر كثيراً في الهجوم!

فقال علي الراعي: طبعاً سيدي. لماذا نتدرب إذن؟ عندما يبدأ الهجوم الكبير سأقطع رؤوس الأعداء ورأس كل جندي عدو بنجمة. وهذا أفضل من الدرس والكليّة.

لأول مرة يبتسم علي الراعي ببساطة فلاح طيب شجاع. أردف الضابط وهو يبتسم للسذاجة الريفية: وهكذا تترفع إلى رتبة ضابط؟

قال علي: نعم. وبجدارة.

ـ وإذا ما تأخر الهجوم؟

انكمد علي الراعي. أطرق نحو الأرض ولم ينبس. همّت الضيعة في ربى نفسه فتساءل بصمت: ولماذا تركت قريتك إذن ياعلي الراعي؟

كان الضابط قد غادر الآن وهو يختال برتبته العسكرية اللامعة.

4

استمر التدريب، واستمرت الأيام بطيئة رتيبة، وقسوة علي الوحش وخشونته على جماعته لاتتغير: العسكرية موت فهمتم أم لا؟

ذات ظهيرة سأله أحدهم: متى يبدأ الهجوم حضرة العريف؟

عقد حاجبيه غضباً وزأر في وجهه: نبلّغكم الأمر في حينه.

لم يكن راضياً عن الجواب، وردد السؤال في سره فشعر بضيق وغيظ مبهمين.

خلال الاستراحة كان يجلس على صخرة في القيظ ويشرد.

الصبُوحية بعد عامين طيف من الذكرى، بعيدة عنه كالنجوم. وطن الشقاء والمَلل والحياة الرتيبة، هي ذي الآن تعشب في الذاكرة يرميه الحنين الشفاف فيها: زينب وفطوم وعليا بنات الحرام يلطينَ ليلاً في الأزقة وإذ يمر يصرخن: علّوش الأصلع. علّوش التعتاع. ويهربْنَ. كم حرق الأرمّ وهو يثب وراءهن عله يمسك بواحدة ليريها رجولته في الخرابة المهجورة.

ـ «آخ لو كُنّ عندي في الجماعة».

جميع صحابه في القرية كانوا عاشقين. لكلّ صبيَّته التي يلتقي بها على البيادر تحت ضوء القمر، أو يتسلل إلى خيمتها الصيفية يتحدثان ويتعانقان حتى الفجر.

أما علي الراعي الفقير فكان منبوذاً ومهملاً كحجارة الأودية.

وهو يثب عن الصخرة صاح بالجماعة: اجتما...ع.

خلال ثوان بدأ التدريب. أُعيدت التمارين والحركات بعنفٍ لم يشهدوه سابقاً، كما عوقب أفراد الجماعة بالزحف والعدو السريع وتسلق الأشجار، وعبور إحدى المخاضات الملوثة، ومن ثم التمرغ فوق التراب الجاف.

ـ إلى المهاجع رَمَلاً!

أحس بنشوة وغفران بعيدي الحدود وهو يراهم يُهرعون

بثيابهم المبتلة المغبرة. همس لنفسه: أنت فعلاً مدرب عظيم يا علي الراعي. هكذا يفهم هؤلاء الخنازير أن العسكرية ليست لعباً!

5

يوماً بعد يوم بدأت رتابة الزمن تضجر علي الراعي، أحس بها تتماثل وأيام القرية، كما وضح له الآن تأخر الهجوم، وازدادت إلحاحات وتذمرات الجنود الظاهرة والخفية فقرر أن يسأل القائد عن الأمر.

راقبه يوماً من الساحة جالساً في ظل خيمته يحتسي الشاي ويدخن. تقدم منه وحيّاه تحية انضباطية اهتز لها بدنه ثم جمد كوتد دُقَّ في صخر.

رفع القائد بصره بصلف وإعجاب: أيوه علي؟

ارتبك علي الراعي تحت حدقتي الضابط، وراح يتأتئ كلمات متشابكة.

ـ علي مالكَ. أين شجاعتك؟

قال القائد بحزم.

استرد علي شجاعته ثم رفع رأسه عالياً: سيدي متى يبدأ الهجوم؟

قذف سؤاله بغضب وجدية كمن يُعطي أو يتلقى أمراً عسكرياً هامّاً، أو كمن يقذف قنبلة إلى أبعد مدى، فشعر بالغبطة.

ضحك الضابط حتى اهتزت كأس الشاي وكادت تسقط من يده.

ـ علي ما اسم قريتك؟

ـ الصبُوحية سيدي.

ـ منذ متى لم تذهب إجازة؟

ـ منذ عامين تقريباً سيدي.

ـ ألم تشتقْ لأهلك؟

ـ كلا سيدي.

ـ لماذا سألت سؤالك؟

ـ الجماعة سألتني عن ذلك سيدي.

وإذ أدرك القائد جدّية الموضوع رفع صوته وتجهم: طيب. قل لهم أن هذا من اختصاص القيادة. اهتموا بشؤون التدريب ولاتتدخلوا في الأمور الكبرى. انصرف الآن.

عندما استدار بعد أن حيّا بطريقة أقل قوة، دهمته غمّة فتمتم لنفسه: أنت يا علي الراعي لست من القيادة إذن!

كان كسيفاً وهو يترنح فوق أرض المعسكر، ينكت الأرض برأس حذائه ويفكر.

في تلك الليلة لم يستطع أن يغفو. بين اليقظة والنوم تراءى له رجل ملتحٍ طويل القامة يرتدي ثياباً سوداء وقف فوقه كالشبح: «أنت شجاع يا علي الراعي لم تَهَبْ شيئاً في حياتك ولن تخسر شيئاً لأنك لاتملك شيئاً. سلاحك معك والحدود قريبة. علي الراعي من قديم الزمان وأنت تهفو للحرب وهذه أرضك يزرعونها ويقيمون عليها البيوت والمستعمرات ويستقرون. أُخذت بالهجوم والدفاع لايعيدها. هاجمهمْ يا علي الراعي يهربوا. نغّصْ عليهم حياتهم يهاجروا. هيا يا علي هيّا. ابدأ حربك، اضربهم في فرحهم في طمأنينتهم في مخادعهم. لن تخسر شيئاً لأنك لاتملك شيئاً. أدِرْ

ظهرك للكلمات والضوضاء ولاتستمع إلى طنين الجبناء». واختفى الرجل الملتحي.

6

عندما استيقظ بُهِتَ من شيء واحد: كيف عرف ذلك الرجل اسمه؟

بعد أن عاد مع جماعته من درس الرياضة الصباحي، جلس أمام خيمته وراح يحدق في السهول والجبال البعيدة. نضرة مهيبة جريحة تحت البصر، يقطنها الغزاة منذ عشرات السنين. على نحو مشوَّش في ذهنه المحدود اختلطت أمورُ ماكان يفكر فيها في الماضي، هاهي تحبو الآن كالأطياف على شاشة عقله فتسبب له الكثير من الغم والضيق.

«أنت يا علي الراعي جندي بسيط لست ببال أحد. جندي يتلقى الأوامر وينفذها. منذ عامين وأنت وجماعتك تنتظرون الهجوم. وهاهي تمارين التدريب تتكرر آلاف المرّات عبر آلاف الأيام والهجوم لما يأت. والهجوم يجثم في رأس القيادة ربما في المنطقة المنسية من الرأس، وأنت لست من القيادة. والجندي البسيط يستيقظ بأمر وينام بأمر ويتدرب بأمر ويأكل بأمر، ينزل المدينة بأمر ويغادرها بأمر ويتزوج بأمر، وربما كان عليه أن يفكر بينه وبين نفسه بأمر أيضاً».

وخلال لحظة مومضة أدرك علي الراعي بأن عمره مربوط بسلسلة ذات فروع بلا نهاية، وأن هذه السلسلة تحركها يد خفيَّة، وهذه اليد تطيل له أو تقصر متى عنّ لها ذلك، كما أدرك أن بينه وبين قائده هوة سحيقة لاسبيل إلى ردمها. وأن هذه الهوة ربما

كانت تمتد إلى بدء الخليقة. لقد أحس بالذعر الحقيقي لأول مرة وهو يكتشف أنه بلا حرية.

7

في الليلة التالية حضر الرجل الأسود. رأى في وجهه عبوساً وغضباً. حمله من فراشه وطار به في فضاء تحته غابات وأنهار وفي الفضاء رأى أمه. كان رأسها مقطوعاً عن جسدها وكان مشوهاً مثلّماً بالجراح وشخوب الدم، وحاول التوقف ليحدثها لكن الرجل الملتحي سحبه بعيداً عنها، وسمع أنيناً فاجعاً خلفه ثم رأى سحابة مقبلة نحوه وقد علقت بها طيور مصنوعة من الدم والعلق، تسلقت الطيور لحمه وفجأة رأى نفسه عارياً تماماً فأحس بالعار وحاول أن يختبئ داخل الغمامة لكن الطيور لاحقته وراحت تمتص دمه، وتلاشى صوت أمه وحاول أن يصرخ فلم يسمع صوته، وامتدت يده لترد طيور الدم والعلق فإذا بها مشلولة عصية على الحركة، وشاهد تحته على الأرض معارك وغباراً ونساءً وأطفالاً عرايا يُساقون بالسلاسل ويُطعنون، وكان الرجل الأسود قد تركه يسبح وحيداً في الفراغ مبتعداً عنه. كان يراه وهو يطير باتجاه الغابات واعترضه القائد فنهره بغضب كي يعود لكنه نحّاه عن طريقه وقال له: أنت جبان يا سيدي. ألا ترى طيور الدم تأكلنا. وكانت الطيور تحلق فوق القائد ورآها تنقضُّ عليه حاملة قطعاً من لحم وجهه ثم شاهدها وهي تسمل عينيه وتتقاذفهما بمناقيرها الضخمة والقائد يصرخ ويدور في الفضاء أعمى سابحاً في بحيرات الدم.

وسأله: سيدي ألا نبدأ بالهجوم؟

8

ماعاد علي الراعي يسأل عن الهجوم العام. لقد نفد صبره أخيراً فكسر أول حلقة من حلقات السلسلة الفولاذية مجتازاً الحدود المحرَّمة، بادئاً هجومه الخاص.

في ساعات الراحة كان يرصد بدقة مواقع أولئك الذين خُدعوا توراتياً بأن تلك الأرض لهم، فجاؤوا من كل بقاع المعمورة ليعيدوا مآسي الحروب الصليبية وليُدفنوا فيها.

كان الرصد النهاري توطئة لهجوم ليلي سيقوم به وحده متخطياً طقوس الأوامر القيادية.

بعد منتصف الليل في الساعات الأولى من الفجر كانت غاراته تبدأ، وكان سلاحه الأصمت فعالية، سكيناً طويلة حادة، ونادراً ما يستعمل رشاشه ذا الأخمص القابل للطي. وعندما يعود قبيل الفجر كان يتجه نحو مغارة في السفح المجاور للمعسكر يخلي فيها غنائمه الحربية.

رغم المشقات الليلية لم يتوانَ عن التدريب، بل ازدادت خبرته فكان يعلّم جماعته المراقبة الفعالة والتنقل والتمركز والكمين والإغارة والانقضاض والخنق والطعن وسحب القتلى والأسرى والأسلحة، منفذاً الحركات والتمارين كأنه في أرض المعركة بين دهشة الجنود وإعجاب قادته. وفي أحاديثه لجماعته ماعاد يقتصر على كلمة: العسكرية موت. إنما أضاف إليها كلمات أخرى ذات مغزى: الإنسان الجريء يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة. الوطن ليس كلمات وحماسة. الوطن تضحية ودم. الوطن هجوم. حارَبونا

بالعصابات. لنحاربهم بالعصابات. كل واحد منا يقتل جندياً غازياً نفنيهم. القاتل جزاؤه القتل في شرعنا.

بانتباه وفخر كانوا ينصتون إليه، وماعادوا يهزؤون من فأفأته وهو يحكي. هجر علي الراعي العزلة، والاقتراب من الضباط المعزولين عن الجنود والذين بنوا لأنفسهم مجتمعاً خاصاً في الثُكنة والمدينة، بعيداً عن عالم الجنود وعالم المعركة.

كانت الصبّوحية قد انطوت تقريباً من ذاكرته، فأحس بتحول جديد في نفسه، فهو يستطيع أن يتحرك ويفكر بأوامر تصدر منه، غير أن ماكان يكمِدُه أن زمان المعركة سيطول وستصحبه آلام كثيرة وأحزان. وكان يعذبه كتمان سره عن رفاقه حتى خشي أن يسألوه مرة أخرى عن بدء الهجوم.

ذات غروب طلبه القائد وسأله أن يذهب في إجازة فرفض. فقال القائد: ولكن أنت لم تذهب إجازة منذ قدومك إلى هنا. ألا تحب قريتك وأهلك يا علي؟

فأجاب بعفوية: كل القرى قريتي. وكل الجنود أهلي.

سرّ الضابط ودُهش: لكن الإنسان يحن إلى كوخ تربى فيه!

فأجاب فجأة: أكواخنا مسبيّة يا سيدي.

تنبه الضابط موخَزاً: أين قرأت ذلك؟

فقال وهو يشير نحو الأرض المغتصَبة: هناك يا سيدي.

ودّع الضابط الأنيق بتحية فاترة ثم مضى إلى خيمته.

تصاعدت عمليات علي الوحش فأفزعت العدو. تحدَّث في إذاعته عن دوريات مسلحة تهاجم مخافره ونقاط استناده ومدنييه، تقتل وتخطف وتخرب، مهدّداً بغارات انتقامية رداً على هذه الأعمال

التخريبية. دهشت القيادة لهذه الأنباء واعتبرتها حججاً كاذبة للقيام باعتداءات جديدة.

في باحة المعسكر جُمعت العناصر وتحدث القائد عن تخرصات العدو وتحدياته: «علينا أن نكون حذرين وألا ننزج في معارك خاسرة. أنتم تعلمون أن أحداً من جنودنا لم يجتز الحدود. الأوامر واضحة فالمعركة لم تبدأ بعد، والقيادة في طور التحضير للهجوم ومتى انتهى سنقوم بهجومنا الكاسح وعندها لن نبالي بتهديدات عدونا. إننا ننذر أي جندي يفكر بمغامرة اجتياز الحدود. هذا يعني التورط في معركة غير متكافئة كما يعني الهزيمة. كونوا يقظين أيها الرجال ويوم النصر قريب بإذن الله».

كان هناك في الرتل الأخير أمام جماعته، وكان يسمع التحذير وكلمات الحماسة وهي تتدافع من فم القائد. تذكر وجهه المدمّى المرتعد في الحلم والطيور الدموية تنقض عليه وتفقأ عينيه وهو يحاول صدّ الطيور. هوذا وسط الجنود يكشّ ذبابات تحوم حول وجهه وقد ارتسم الغضب عليه بديلاً عن الذعر.

فجأة داهم علي الراعي شعور مرير بالتوحد، وبأنه ربما كان مخطئاً في عمله.

9

أعطى نفسه استراحة لمدة أسبوع، لم يقم خلالها بأية عملية. كان السر يضغط على جدران رأسه، ولم يكن قد ناقش لماذا أقدم على التجربة وإلى متى يستطيع أن يستمر، وهل يمكن أن يبقى وحيداً يقاتل خفية في معسكر لايفعل إلا التدريب والأكل والنوم والانصياع للأوامر، ثم ينتظر. فكر بإفشاء السر لبعض عناصر جماعته الذين وثِقوا به كما يبدو.

عصر يوم عطلة انفرد بجندي كان يختبره خلال أيام التدريب، وهمس له: لاتنزل إلى المدينة لدي ما أقوله لك.

وغبَّ المساء اتجها نحو سفح الوادي بحذر شديد.

عقلت الدهشة لسان الجندي وهو يرى مافي الكهف، وبعد أن انتهى علي من إغلاقه بصخرة محكمة روى له السر.

قال له وهما يجلسان قرب الكهف: لن تفشيه طبعاً وإلا...

قارب كفه من رقبته بحركة خاطفة تشير إلى الذبح.

قال الجندي بلجاجة: ولكن هذا...عمل خطير.

فقال العريف الفخري بثقة: خطير أو غير خطير. لقد حدث وليكن مايكون. هل تشترك معي؟

وتساءل الجندي: والقيادة؟

قال علي الراعي: القيادة تنتظر أوامر القيادة الأعلى. والقيادة الأعلى تنتظر الأعلى منها. وهكذا...

واستطرد: كم مضى عليك في هذا المعسكر؟

ـ عامان تقريباً!

وقال علي: ومن كان قبلك. وسلفه. وسلف السلف؟ عطب البارود، والحراب صدئت من الانتظار والجنود نسوا الحرب. ماعادوا يفكرون بغير الأطعمة والرواتب والإجازات والزواج والنزول إلى المدن الجميلة. إلى متى؟ أنا كنت مثلك. نحن مخدوعون.

وسأله الجندي: ولكن أتعتقد أن هجومهم لن يبدأ؟

قال علي بوثوق ذاتي أكثر: سيان. المهم أن نبدأ نحن هجومنا.

ـ ولكن أليس هذا مخالفة غير انضباطية؟

ابتسم علي الراعي وربت على كتف الجندي: لاتفكر كثيراً فيما يقولون ويأمرون. إن هي إلا حكاية قديمة مسلية تشبه حكايا الجَّدات الخُرافية للأطفال في الليالي كي يناموا. لقد اعتادوا روايتها علينا منذ عشرين عاماً. صُمَّت آذاننا ونحن نسمعها. إن أحداً ما لايأخذ على مسؤوليته أمر الهجوم الكبير. صدقني هذه هي الحقيقة الساطعة.

كان المساء قد زحف الآن وغطى المرتفعات والسهول، وأمامها كانت تُرى أضواء خافتة وحركة آليات عدوة لم تكن تتحرك في النهار.

نهضا عن الصخرة وانحدرا صامتين نحو المعسكر.

بعد منتصف الليلة الثانية تسلل علي من فراشه كعادته واتجه نحو مهجع الجنود، لكز الجندي النائم فهبّ من فراشه ورأى الجندي وهو يفتح عينيه، شَبَح رجل يقف فوقه. وضع العريف كفه فوق فمه وهمس له: أنا علي هيّا. بسرعة.

كانت ليلة باردة وكان علي يحمل كيساً وسأله الجندي عنه فأجابه: دع الأسئلة وتعلم منذ الآن كيف تفتح عينيك جيداً أو أذنيك وأن تصمت.

قبل أن يجتازا الحدود أعطاه تفاصيل المهمة، ثم ناوله من الكيس ثياباً عدوة، ارتديا الألبسة وتأكد علي من سكين ورشاش وذخيرة الجندي ثم وضع يده على صدره. كان قلب الجندي يخفق بتسارع واضح فهمس له: ضع خوفك تحت حجر هنا وعندما تعود خذه. أنا أعرف تلك الأرض معرفتي بساحة التدريب.

واجتازا.

خلف شجرة في حديقة كَمَن الجندي وراح يراقب في الظلمة بينما تقدم علي داخل المعسكر.

لم يكن خوف الجندي قد هدأ تماماً، لكنه كان مطمئناً لوجود علي: أي إنسان هذا الرجل الذي يدخل مراكز الأعداء ولايرتعش... هل من المعقول أنه لايخاف؟ الأسد يخاف ناهيك عن الإنسان. أبي كان يقول: الإنسان لايخاف إلا إنساناً مثله. وإذا ماعرفوه؟ والله هذا المقاتل أقوى من الموت. أليس حراماً أن يموت الرجال الشجعان. لو أُطلقتِ النار عليه هل أتركه وحده؟ معي خمسة مخازن. تلمَسها ثم عدها ولامس برؤوس أصابعه قبضة السكين، فأحس بالأمان.

كانت الأرض طرية والشجرة فوقه تبدو من فتحاتها الغيوم، وجواره كانت الظلمة وكان وحيداً ينصت لصمته المُصدي ولأية نأمة ولخوفه. كانا وحيدين فوق أرض يطؤها آلاف الأعداء. وخيل إليه أنه سمع حشرجة خاطفة فتوثب ملامساً انحناءة الزناد وحدق أكثر. كانت قدماه تصطكان الآن ونبضه يتسارع بينما جبينه يلتهب.

عاد علي حاملاً الكيس فوق ظهره، وإذ اقترب أعطى كلمة السر. عبرا في العودة طريقاً أخرى وتناوب الجندي حمل الكيس في منتصف الطريق فأحس ثقله وكروية مابداخله يتأرجح على عموده الفقري. خلال العودة كانا كغريبين صامتين بلا كلمة حتى اجتازا خط الحدود. قال علي مازحاً: بإمكانك أن ترفع الحجر وتتناول خوفك الآن. وأخذ منه الكيس متجهاً نحو الكهف. ثم قال: اسبقني إلى المعسكر.

وصاروا ثلاثة ثم أربعة وخشي علي أن ينكشف الأمر إذا ماكَثُرت العناصر، كما توقع صدامات وخسائر مع العدو، فأوقف

الانتساب السري على خمسة من الجماعة، درَّبهم واحداً تلو الآخر على الدخول، وأشركهم في عمليات خاصة قاسية ودامية حتى تصلبت نفوسهم وتحدّث الخوف والرحمة، ثم أعلمهم بأنهم أصبحوا الآن رفاق الموت.

باستمرار كان أحد الأفراد يسهر ويتجول في باحة المعسكر وعلى تخومه، يراقب منتظراً ردود فعل العدو. حتى ذلك الوقت بدا كأن كل شيء كان يتم بهدوء في الداخل. كان التدريب مستمراً لكنه ازداد قساوة وتنوعاً في جماعة علي، بينما ظل على وتيرته في حياة جميع أفراد المعسكر الآخرين.

كان الرفاق الستة متميزين في القدرة العضوية، وقد بدا ذلك واضحاً خلال تدريب السرية بكاملها في الرياضة والعبور والتسلق وتمارين القتال والمسيرات الليلية، كانت نفوسهم صافية كالفضاء. لاشكاوى، لاتذمر، قبول مايُطلب منهم بروح عالية، وتنفيذه، ولم يفكروا مُذ بدأت عملياتهم السرية بأية إجازات أو نزول إلى المدينة.

شيء واحد كان يؤرق نفوسهم: لو انكشفوا!

وخلا الستة كانت المدينة تستهوي الجميع. بدت المدينة محطة راحة وطمأنينة وشهوات لاتنقضي، ولم يكن فيها حرب. وفي أيام العطل كانوا يخرجون إلى البراري والهضاب المشرفة يتحدثون عن أعمالهم ومستقبلهم وعن الاحتمالات. كان علي الراعي يقول: صدقوني أنا لاأخاف العدو أكثر من الصديق. يبدو أنهم قد تخدّروا هنا أو أصابهم الشلل أو دخلوا إحدى حلقات الذكر. يتحدثون كثيراً وقليلاً مايفعلون. بحرارة يحكون عن الماضي وتجارب الناس، ثم يختمون ذلك بحماسة انتظار أوامر القيادة. وإذ يسأله أحد رفاقه: إلى متى سنستمر في أعمالنا السرية؟

فيجيب علي: إلى أن نقوى أكثر أو يحدث الهجوم الكبير.

ـ لكنك قلت بأن ذلك لن يحدث؟

ـ لابد أن يبدأه العدو يوماً.

كانت الصبوّحية بعيدة جداً الآن، كذلك قرى الرفاق الذين اتجهوا منذ سنوات باتجاه الحرب لاجتياز الحدود. كانت القرية آخر حلم يحلم علي الراعي بالعودة إليه، لكنه كان فرحاً في أعماقه لأنه كان أول من خرق الهدنة وعَبَر التخوم الوهمية. لم يكن لعلي الراعي ذكريات هامة، حتى ماضيه كان من التفاهة بحيث لايدعو إلى الحزن على شيء. كانت حربه التي بدأها بطريقته الخاصة، والتي تخطى فيها الأوامر، وقادها، هي ماضيه وحاضره ومستقبله. الآن أدرك تماماً بأنه وقّع مع رفاقه وثيقة الموت بلا أسف.

المدينة الآن، قريبة جداً. ومشعشعة بالأضواء والخمر والنساء العذبات والسيارات والشقق المريحة ومكبرات الصوت والصخب المتواصل.

كان اليوم يوم جمعة وجميع الضباط وكثير من الجنود يمرحون وينسون ويطاردون الشهوات التي لاتنقضي.

فجأة لمحوا رفيقهم الحارس يعدو نحوهم فهبُّوا واثبين وجروا إليه. كان يصيح: العدو... العدو... سرية من العدو... تزحف نحونا. ركضوا باتجاه المعسكر وصاح علي بمن في المعسكر بصوت متوحش: العدو... إلى السلاح. كسر المستودع وراح يوزع على الجنود البنادق والذخيرة والقنابل اليدوية وأوعز إلى أحد رفاقه كي يتجه بالجنود إلى التلال المجاورة ويتمركزوا هناك.

وخلال دقائق أتم عملية التوزيع والتحق برفاقه. نشر الجنود مجموعات على رأس كل مجموعة وضع رفيقاً وأعطى تعليمات

بقتال العدو حتى الموت وهدد من ينهزم بالرمي والقتل. جاء تمركزه على نحو لاشعوري قريباً من الكهف مع مجموعته.

وبدأت المعركة.

10

لم يصدق علي الراعي ماتراه عيناه في البدء. غير أن الوجوه المنقبضة وعلامات الحزم والصرامة وهذه الكلمات الحاسمة ذات الإيقاع التاريخي الجاد، والحرس ذوو القبعات الحمر يحيطون به. جميع هذه الطقوس المنبئة رمَتْ في قلبه الذي لم يَهَبْ يوماً شيئاً من الفزع الحقيقي. وغمرته موجة حزن عميقة القرار وهو يرى نفسه مطوَّقاً ومتهَّماً بتخطي وخرق أوامر القيادة.

لقد وقع إذن وهو مطوّق وجريح. شعر بأنه وحيد الآن يواجه أناساً آخرين عيونهم مصوبة إليه وهو أعزل لايعرف إلا القليل من كلمات اللغة. كان السؤال الأول: منذ متى بدأت تجتاز الحدود.

ولأنه لايذكر التاريخ تماماً أجاب: لاأدري.

وسُئِل: لماذا خرقت الحدود؟

فقال بسذاجة: لأن العدو كان هناك.

وأجاب على سؤال: هل تعترف بأنك تخطيت أوامر القيادة؟

بنعم.

وعلى سؤال: وهل كان سلوكك تمرداً؟

بلا.

وسألوه: هل أردت أن تكون بطلاً؟

فنفى ذلك.

ـ لماذا قمت بتنظيم سري إذن؟

وجَمَ ثم نظر نحو الأرض. تذكر رفاقه وليالي التسلل إلى المستعمرات والمعركة الأخيرة التي دحر فيها العدو، وشعر بجرحه ينقز: «أين هم الآن»؟

وأُعيد السؤال فلم يشعر بضرورة الإجابة عليه فظل صامتاً.

كان الحزن يفور الآن في نفسه، فيشعر بالعزلة كأنه منفي في صحراء بعيداً عن رفاقه، عن أمه، عن الصبّوحية التي علمته براريها وقسوتها وسماؤها كيف يكون جريئاً صافياً كينابيع الأودية.

وهمس لنفسه ممروراً: «ما أكبر خديعتك يا علي الراعي!».

وسُئِل: هل استخدمتم ذخيرة أكثر من المخصصة لكل جندي؟

فقال: نعم.

ـ ومن أين حصلتم على هذه الذخيرة؟

فقال: من مستودع الذخيرة.

وسُئِل: اشرح لنا كيف كنت تسطو على المستودع؟

وسأل مستغرباً عن معنى كلمة: تسطو. فأُجيب: أي تسرق. ودُهش من سماع هذه الكلمة فنفى أن يكون سارقاً. وقال: أمي تشهد بأنني لم أسرق بيضة في حياتي. واجتاح القاعة موجة من الضحك.

تجهم الرئيس ونقر: سكو...ت.

وبدأت الأسئلة من جديد عن المعركة الأخيرة وكسر المستودع وقيادة الجنود: لماذا لم تبلّغ الضابط المناوب عن العدو ليتصرف هو باعتباره أقدم منك وأقدر على القيادة؟

وودّ أن يعترض على كلمة أقدر لكنه قال: نسيتُ ذلك في غمرة الإسراع لمواجهة العدو.

ـ هل تعلم بأنك تسببت بجرح جنديين أنت أحدهما وفقدِ آخر.

جمَّد نظراته في السائل لمدة ثوان معدودة. كتم صرخة ولم يجب.

في اليوم الثاني وفي اجتماع الظهيرة تُلي أمر إداري على جنود السرية الرابعة يتهم علي بن سويلم الراعي من قرية الصبُّوحية إحدى قرى الوطن العربي المحتل بالتهم التالية:

1 ـ خرق أوامر القيادة العليا للجيش والقوات المسلحة والمغامرة بتخطي الحدود للقيام بعمليات نهب وسطو أدت إلى قيام العدو بهجوم على أحد معسكراتنا.

2 ـ تشكيل تنظيم سري في المعسكر رقم (6) والتحريض على العصيان ودخول مستعمرات العدو بالقصد ذاته المبين في المادة رقم (1).

3 ـ التصرف بذخيرة المعسكر سراً لصالح الجماعة التي شكّلها المتهم بدون علم القيادة.

4 ـ تخطّي من هو أعلى منه رتبة وكسر مستودع الذخيرة والتصدي بعدد ضئيل من الجنود لسرية من جنود العدو مما سبب جرح جنديين وفقدان آخر تعتقد القيادة أن العدو أسره والجندي المفقود يحمل أسراراً عسكرية في غاية الخطورة قد يضطر إلى إفشائها تحت الضغط والتعذيب.

إن القيادة بناء على ماورد في التهم المبينة أدناه، وحرصاً منها على سلامة الوطن وجنوده، وحتى لاتتكرر مثل هذه المحاولات الفردية المغامرة، التي قد تورط الجيش والشعب في معركة لم يتم الاستعداد لخوضها، وتثبيتاً للقيم الانضباطية، وحتى

تُحفظ هيبة القيادة وتُنفذ أوامرها بحزم وشدة. حَكَمت على العريف علي بن سويلم الراعي:

1 ـ بالتجريد من رتبته العسكرية.

2 ـ بطرده من القوات المسلحة.

3 ـ بزجه في معسكرات الأعمال الشاقة لمدة...

لم يسمع الجنود مدة الحكم. كانت أبصارهم معلقة على مدخل المعسكر وقد بدؤوا يهمهمون بأصوات مرتفعة.

كان الجندي المفقود يتقدم بتثاقل جارّاً وراءه مدفع هاون وعلى كتفيه عدد من الرشاشات والبنادق. كان يقترب من الساحة وأبصار الجميع معلقة عليه والدهشة تتخطف الجميع.

بدا مُنهكاً وثيابه مبللة بالعرق وهو يلهث محني الظهر تحت حِمله.

نسي الجنود المجتمعون الأمر الإداري فوثبوا نحوه ليساعدوه. بُهتَ الضابط فتراخت يده التي تحمل الأمر وهوت على جنبه.

وإذ وصل الجندي الساحة هوى إعياءً على الأرض.

تقدم الضابط منه ورفعه قليلاً فسقط الأمر فوق الغبار وراح يمسح عرقه. طلب له ماء فسقوه وسأله الضابط بذهول:

من أين جئت بهذه الأسلحة؟

فتمتم: من مغارة علي الراعي.

ـ هل بقي هناك أسلحة؟

فأجاب بخفوت تعِبٍ: أجل. ورؤوس أيضاً.

دمشق 1969

القتيل

القتيل

1

منذ زمن طويل وأنا أفكر بهذه القصة. لم تكن جميع النوافذ مغلقة غير أن عشرات الكوى التي تتسرب منها الأشعة باتجاه ذلك العالم العضوي والنفسي كانت تربكني وتضعني أمام اختبار رديء وموحش في الوقت نفسه.

أعترف مبدئياً بأنها عملية ارتياد صعبة، لكنها مشوِّقة وخطرة. هل جرّب أحدنا يوماً إمساك الذرات السابحة في مسار ضوء شمس يخترق نافذة غرفة رطبة في الشتاء؟

في طفولتي أذكر أنني جرّبت ماهو أكثر استحالة: أن أعدو بلهفة غريبة لأعبر تحت قوس قزح غبَّ يوم شتائي سطعت شمسه.

كانت جدتي تقول: من يمسك قوس قزح ينجُ من الموت. بيقين مطلق كانت تقول ذلك، وباليقين نفسه كانت تدرك أن أحداً لن ينجو.

منذ زمن ليس باستطاعتي تحديده عرفتُ هذا الرجل الغريب.

كانت معرفتي به تشبه مسار الذرات عبر ممر الشمس، أو رؤية ألوان قوس قزح الرائعة. يسكنني ويخرج مني متى شاء، يعترضني في أي مكان، ويحدثني بغرابة عن جميع الأشياء، لكنه كقوس قزح ظل عصيّاً على اللمس.

بدرجة مختلفة أحببته وحزنت عليه إبَّان تعارفنا في الأزمنة الأولى. كان فتياً شرساً ومغامراً في آن، وفي آن كان يبدو هادئاً مستسلماً كامرأة أذلَّها الاغتصاب. وفي الآنين لم أكرهه.

الآن إذ أرنو إليه أكاد أُصعق. ضيق وخوف يطوقانني. سحنة غريبة عديمة اللون. حدبة كريهة تتقبب فوق ظهره. عينان احتلهما العار طارداً منهما الومض القديم. ثم هذا الوجه المشوّه وقد لاح فيه العذاب والذل.

والآن. الآن فقط أكاد أمقته: ما الذي دهاه؟

من قديم، قديم، هبط هذا المخلوق من عالم بعيد. قالوا بأنه أتى من الغابات، وآخرون قالوا بأنه هاجر من الصحراء، وقسم ضئيل من سكان هذه المدينة تكهنوا بأنه اختمر من الأرض، ثم بفعل العواصف والأمطار والرعود صار إلى هذه الهيئة شبه البشرية.

لاأحد يعرف ميلادَه. ذات يوم فوجئوا به وفيما بعد اعتادوه، ثم مع الزمن صار كالمطر والريح والشمس، ونسوه. جميع الناس عرفوه. كمدٍّ البحر وجزره، بل كان البحر في غضبه وصمته.

تعايشنا زمناً قبل أن يصير إلى ماهو عليه الآن. عاش معي في اليقظة والحلم، في الطفولة واليفاع، وعلمني أشياء كثيرة. ماأزال أذكر تلك الليلة التي جاءني فيها وكنت قد قررت اعتزال الناس، معتكفاً في غرفتي لأن الكثرة من الناس أشرار وأنانيون،

والإنسان في هذا العالم يولد وينمو ويموت وحيداً كشجرة في صحراء، وأن الحياة مهما بدت حسية وحادة في الصفحة الأولى، لكنها في الصفحة الثانية تبدو مجرد وهم أو حلم.

يومها وأنا أعبر تلك المرحلة المختلّة اليائسة، حضر. حدثته عن حالتي وقلت بأنني يائس من كل شيء في هذا العالم، وأنني سأظل في هذا الجُحر أنام وأستيقظ، آكل وأبول وأتغوّط، أتأمل الجدران واللاشيء وأمضغ الضجر حتى أموت. يومها اتهمني بالمرض والعجز عن المشاركة وأنني أناني وفردي، ولو أن جميع البشر فعلوا مثلي لاستحالت الحياة ولصار الإنسان كالحجارة وانقرض النوع البشري عن الأرض، ثم أهاب بي أن أخرج من عزلتي وأرمي بهذه الأفكار السوداء إلى البحر.

في كل لقاء بيننا كنت أخسر. وكان ذلك يشبه موجاً يندفع نحو صخرة، يَحتُّها ضربة إثر ضربة حتى تتشكل كما يريد الموج لا كما تريد الصخرة.

كان يطرح علي أسئلة محرجة ومخيفة حول الحب والموت والفرح والشقاء والزمن والأحلام والخلاص، وكانت أجوبتي تخاتل حول أسئلته تحت ستار أن هذه الأمور الصعبة يمكن أن تُعاش أكثر مما يُفكّر بها، وأن التأمل المضني حول مثل هذه المسائل يحيل الحياة إلى جحيم يمتص نضارة الإنسان دون الوصول إلى قناعة نهائية، وأنا إنسان بسيط كل ما أبتغيه في الحياة عيشاً سهلاً وعمراً تشرق الشمس خلاله وتغيب دون أن تمر في طور الكسوف.

بحزن كان يتملاني وأنا أحكي. حزن ممزوج بشفقة.

- آه. كم أنت تعيس. أنا حزين من أجلكم جميعاً.

وإذ سألته لماذا هو حزين، اكتسى حالة كانت مزيجاً من الشعر والفلسفة، وراح يتحدث عن الناس المرضى الذين يموتون برغبة داخلية تستبطنهم دون أن يدركوها. خلال الزمن ينسجون موتهم كما تنسج دودة الحرير شرنقتها. وسمّى تلك الرغبة بالخوف. الخوف المُنبثّ في حليب الأم، والجاثم بين الطفل وأبيه. الخوف المطل من عيني معلم المدرسة، والمتربّص في خطوات الفتاة الماضية للقاء حبيبها. الخوف الذي يغلب أمة كثيرة العددة في حرب مفاجئة. ثم يضيف: منذ الطفولة تبدأ الانقسامات داخل النفس. خلايا تضمر لأنها لاتمارس وظيفتها وخلايا تنمو على حساب الأخرى. على هذا النحو تنقسم الخلايا إلى خلايا ضامرة وخلايا نامية. ومع الزمن تكتسب ألوانها الخاصة. ويسألني إن كنت لاحظت يوماً الطيف الضوئي بحركة ذراته وامتزاج ألوانه وتداخلها، فأجيب بالنفي فيشرح لي بأن اللون الأساسي موجود لكنه منقسم إلى عشرات الألوان الأخرى غير أن هذه الأشعة الجديدة تنفي اللون الأساسي. لاتنفيه تماماً إنما تبدده. لم يعد هو. هل تفهم؟

أهز رأسي يميناً وشمالاً. تغزوني حالة من صعوبة الإدراك. هذا المخلوق يطلسِمُني. أحسني ذرة مقذوفة في فراغ وهذا المخلوق الغريب ريح. يرفعني عالياً عالياً نحو سماوات سبع طباق. يريني العالم ضباباً وهيولى. ينوس بي بين الفجر والليل بين الشك واليقين. يعطيني السرّ الذي يشبه شعرة الجحيم والنار ويقول: هو ذا صراطك. أمشي. لست في الفضاء ولا على الأرض. لاحالمٌ أنا ولايقظ. أبدو كأنما على التخم الرفيع بينهما. وفجأة يهوي بي في منحدر الشمس نحو البحر.

«الناس هنا ليسوا هم. كانوا في زمن ما، لكن الانقسام

حوّلهم. دخلوا شبكة الطيف الضوئي للخوف. الخلايا الأساسية هوت تحت الشبكة وضمرت، وفي مدار الطيف نمَتْ الخلايا الفرعية. الحياة نفسها أفرزتها ليستمر قانون الموت في الخوف. أنا أتحدث إليك عن الجواهر. عن تكوّن الذرات الأولى في الصحراء، يوم كانت الدنيا غمراً ثم صرخ أول طفل تحت الريح والشمس ثم حبا ثم مشى ثم امتطى أول صهوة ثم طعن أول عدوّ ثم انتشى ثم اغتيل ثم سقط في الصحراء.

منذ ذلك اليوم غزا الناس الاطمئنان. ركنوا تحت مظلة خوف لايدركون خطره. كلكم تغفون تحت قشرة هلامية اسمها الزمن المنسي. هل سأل أحدكم يوماً نفسه عن الزمن الحي والزمن الميت وفي أي منهما يحيا. هل أدركتم يوماً معنى الجوع والعطش والسجن والأرق والعري والقتل والخيانة؟ قُمْ وانظر من نافذتك. انظر إليهم كيف يتسارعون في الشوارع هرباً من الخوف، خوفاً من الجوع والعطش والسجن والأرق والعري والقتل والخيانة، لكنهم بعد حين يقعون في الفخ. لقد نسوا من هم، لو فتشتهم جيداً لعثرت على هوياتهم المزورة: إن أحداً منكم ليس ابناً شرعياً».

2

أرتجْتُ باب حجرتي جيداً وانحدرت إلى مدينة الخوف. كل أفكاري القديمة عن الحب والفرح والعفوية والبراءة والأخلاص ماتت. هبطت كما قال ذلك النغل نحو الطبقة المظلمة من البحر.

أعوم في الشوارع بين الأمواج البشرية. الناس مسرعون لكن الخوف مرتسم في قسماتهم. حركاتهم مضطربة كأنهم مطاردون. أحاول أن أسأل أحد المارة. يرنو نحوي بازدراء ثم يخبُ خطاه

ولايجيب. لاأحد يتحدث إلى أحد. الكل ماضٍ عبر تيار خوفه.

«ـ ما الذي دها الناس»؟

فجأة أشعر بأنني خائف. أحاول أن أمزج خوفي بخوف الناس لتعبرني حالة أمان، لكن الناس يمضون سراعاً وأنا متباطئ. في الشارع ألقى الصديقة التي أحببتها بكل ماملكت نفسي. أسألها ماذا جرى. فتسألني عن العقد الأخضر الذي وعدتها به، فأقول لقد هوى من يدي خطأ في البحر. تندهش وتقول: كيف سأرتدي فستاني الجديد بدونه؟

أقول: ألست خائفة؟ فتشرح لي بأنها ماضية إلى غرفتي وأنها قد اشتاقتني وأن علينا أن نسرع نحو البيت لننام معاً عاريين قبل أن نموت. باقتضاب أُفهمها بأن حكايتنا انتهت، وماعاد لنا زمن من أجل الحب، وأن الحب لايحيا في أزمنة الخوف. خذي كل ممتلكاتك ضعي فيها حُبنا القديم واقذفيها إلى البحر.

تتهمني باللامبالاة، وأنني أخطأت خطأ فادحاً برمي العقد في البحر، وقد تحولت عنها. تحت ثديها الأيسر أضع كفّي فأحس وجيب قلبها: أنت ترتعشين من الهلع يا عزيزتي. هل لك أن تعطيني هويتك لأبدلها لك قبل أن تموتي؟

ترنو نحوي باستغراب: هيه هل فقدت صوابك؟

أقول: لا، إنما أنت ستموتين قبل أن تصِلي.

وتمضي عني. أرقبها. خطواتها سريعة وخائفة. تتلفت نحوي مذعورة حزينة وعلى رصيف منعطف الشارع تموت.

لست أدري إلى أين. صار الخوف هاجساً وسفينة. وجوه الناس تقمّصها الخوف، وتحت الخوف بشائر موت مبهم. الآن

أرى هذا الوباء كذرات كانت في حالة كمون تحت طبقات منسية. الذرات قُذفت بمحرِّض هيَّجها وبعثرها فارتفعت كفقاعات داخل زجاجة محكمة السد. أحس بأن آلاف الزجاجات موقوتة. في العيون أرى التوقيت وداخل البيوت المطمئنة. خوف وتوقيت. توقيت وخوف وتعود الدنيا غمراً. تعود الدنيا صحارى.

تعروني فكرة تجتاح مفاصلي. لو عدتُ إلى بيتي واستلقيت على الفراش فسأموت. لو ولجتُ مقهى وجلست على كرسي سأموت. لو دخلتُ مطعماً وأنا آكل سأموت. لحظة الجنس هي الأخرى هاجس موت. أمضي. الحركة قد تكبح الموت. أعبر حديقة تنتصب فيها أراجيح أطفال. الأطفال لايتأرجحون، في طرف الحديقة تجمهروا حول طفلة. الطفلة عارية والأطفال حولها في حالة هرج واقتتال. بين فخذي الطفلة الحريريين دم يسيل وفي أيدي الأطفال أمواس تلمع ببريق خاطف. الطفلة تصرخ وعلى وجهها المستلقي هلع العالم كله. الأطفال حولها يرقصون وقد أشرعوا أمواسهم. بعد حين ينقضّون عليها ويبدأ الطعن. أهرع خارجاً من الحديقة. صرتُ خوفي. كالقدر أراه بغتةً بهيئته المحزنة المشوَّهة. أحاول أن أهرب من وجهه. يسد عليّ المنافذ. يقهقه: حيثما وليّت وجهك ثمة أنا. الهرب لاينجي. بلجلجة أقول: من أنت؟ بسخرية يرد: صديقك القديم. ها. ها. ألم أقل لك أنكم تعيشون في الزمن المنسي.

يذكّرني بالخوف والموت في النفوس التي خُيل إليها أنها تنجو بالركض والهرب غافلة عن قانون الزمن والتحول، ناسية أن الموت يطالها ولو داخل أبراج مشيدة. ثم يشير إلى الناس: هؤلاء الأحياء موتى مؤجلون حكموا على أنفسهم بلعنة أفقدتهم الذاكرة.

أسأله: لماذا تغيّرت؟ فيقول: هم الذين تغيروا. هيا معي إلى ساحة المدينة.

ونمضي.

في الطريق أسأله لماذا ماتت صديقتي فيقول بأنها فقدت الأمل. الناس يموتون هنا لأنهم بلا أمل. حتى الأطفال فقدوا آمالهم. مع الخوف الأمل مفقود.

ـ ولكن متى يعود الأمل؟

ـ مع عودة الذاكرة، آنذاك يصير للموت معنى.

ـ لكن الموت هو الموت.

ـ في النتيجة. أما الأسباب؟ هل سألت نفسك: لماذا يقتتل هؤلاء الناس؟

هانحن في ساحة المدينة. حشد من الناس. عراة ومحجّبون. نساء ورجال. باعة وجنود. في مركز الساحة رجلان عاريان يتباريان بالسيوف. الأسطحة مكتظة والنوافذ. أصوات ترتفع مشجعة. جماعات تراهن على من سيفوز. رجل على الناصية يقرأ افتتاحية جريدة. على الناصية المقابلة شيخ معمّم معه ربابة يغني وحوله جماعة:

يا أهلَ يثرب لامقامَ لكم بها قُتِلَ الشهيدُ فادمعي مدرارُ

الجسم منه بكربلاء مضرّجٌ والرأس منه على القناة يُدارُ

صبي مهلل الثياب يستجدي شيئاً يأكله. شاب وفتاة ينزويان في زاوية ويمارسان الحب.

فلاح ينادي على دجاجاته فيضيع صوته في الزحام.

في الجهة الجنوبية من الساحة تقف جماعة تهتف بشعارات سياسية، تقابلها في الجهة الشمالية جماعة أخرى تهتف بشعارات مضادة. بين الجهتين شباب وبنات يهتفون للثورة الجنسية. صوت مؤذن يتنامى: الله أكبر. الله أكبر. في الوسط المبارزة مستمرة.

أناس يتفرجون وآخرون لايعنيهم الأمر. بين حين وآخر تُنثر على المتبارزين زنابق أو فضلات قمامة. الساحة في حالة صخب وضوضاء لامثيل لها، وبين هذا الهرج يحاول الجنود إيقاف الضجة فيفشلون.

تحتدم المبارزة فيجرح أحد المتبارزين خصمه تحت عينه. يهتاج الجريح وتعلو الهتافات. يدور الجريح حول خصمه محاولاً رد الطعنة. يخيم صمتٌ هَلِع. يرتفع صوت الشيخ المعمّم عبر الضوضاء:

«وسألهم الخليفة كيف فعلتم به فقالوا جاءنا في ثمانية عشر من أهل بيته ونيف وخمسين من أصحابه وأنصاره، فسألناهم أن ينزلوا على حكم الأمير أو القتال فاختاروا القتال فقتلناهم عن آخرهم وهذه رؤوسهم وسباياهم، أما أجسادهم فبأرض كربلاء مطرّحة تصهرها الشموس وتذروها الرياح وتنوشها العقبان».

ترتفع الهتافات. طعنة الجريح تمر تحت إبط الخصم. الآخر يزوغ وبحركة بهلوانية يطعنه تحت عينه الثانية. هياج. أصوات مختلطة. يتمدد الخوف مع قطرات الدم التي بقعت أرض الساحة. الجريح يزداد شراسة فيلوب حول خصمه وهو يهدر. ضرباته عشوائية ينقض على خصمه كالصقر لكن الآخر يميل فينبو رأس السيف.

هناك. أنا وصديقي القديم صامتان. أنا وصديقي القديم محايدان. الحزن بين سيفين مسنونين مصروع لامحالة. أنا وصديقي القديم في نقطة منسية من محيط الساحة مدثران بالحزن فقط.

هو ذا الآخر يدور. الجريح أعياه النزف. حركاته صارت

بطيئة. الآخر يشرع سيفه. يمده نحو الشرفات. من الشرفات تأتيه قبلات النسوة وقد رفعن الستر عن الوجوه والصدور. يقوم بحركات توحي بالنهاية. يرد القبلات بحد السيف. أصوات. حركة ويصبح خلف خصمه وبكل شبق القتل والجنس يطعن. يخترق السيف الظهر حتى القلب فينكفئ الصريع. بهدوء المنتصر يقترب منه يرتقي قفاه ويشرع سيفه في الفضاء بين التهليل والهتاف والتكبير، وفي لمح البرق يحتز رأسه ثم يرفعه على رأس سيفه. تختلج الجماهير بجنون الدهشة والخوف فيندفع كثيرون نحو الساحة. الجنود يرفعون المنتصر على الراحات وهم يصرخون: هورا. هورا. هورا.

اختفى صديقي. واختفى الناس. فرغت الساحة إلا من الجثة المقطوعة الرأس والصمت. بخُطى موتية أعبر الساحة وأنا منكفئ.

جهيراً جنائزياً يخترق الفضاء صوت المؤذن ثم يتمدد الصمت.

دمشق 1969

الصخور

الصخور

1

ـ هذا الطفل لامبرر لرؤيته هذا العالم!

قلت هذا ونقرت بطن المرأة المنفوخ. أنَّت متراجعة بحركة دفاعية ثم لوت رقبتها ألماً:

ـ أيها الأحمق!

كما قبلتُ هشاشة الحياة، قبلتُ هذه المرأة المولودة من الضلع المناقض للحركة والتغير.

سأهاجر. ذلك هو العزاء للذين فقدوا القدرة على الانتحار. قفزت إلى المكتبة. تناولت بعض الكتب وراكمتها في الحقيبة، ومن خزانة الثياب أخرجت عشيقتي الزنجية الفارهة. بضربة خافتة عريتها من ثوبها ثم قذفتها في الفضاء فاستلقت على ذراعي. قبلّتها بهوس ثم أسندت أخمصها إلى كتفي وصوبتُ من خلال زجاج النافذة. خط التسديد ـ الشعيرة ـ قمة قاسيون. طاق...

طاق... طاق. ثبي أيتها الأرانب، وانفري يا ديوك الحجل، فعمًا قريب تبدأ لعبة الفرح والموت.

في غلاف قماشي قديم لففتها. قمطتها كيلا تنخدش ومددتها بين الثياب داخل الحقيبة: نامي هنا يا عروس الموت.

قالت المرأة التي تزوجتني خطأ: نسيتَ علب الخرطوش!

وثبتُ نحو المكتبة ثانية. فرح متوهج حملني إلى المنحدرات وأنا أحمل علب الخرطوش، وأضمها إلى صدري كيلا تنهار. صاح فرح الرحيل: افتحي الحقيبة!

وفي جوفها انهالت صناديق العلب الملونة.

فجأة من مكان ما من النفس شالت أغنية:

«داخل حدود المدينة المسيجة بالأسلاك

يحلم السجناء بالهروب والشمس الصاحية.

هناك في المرتفعات الشرقية

قرب مهد الشمس

ينقر السمّان حبات الغار السود.

طيور الحجل فوق الصخور تغني

وتنفض البلل عن أجنحتها.

والصيادون خبباً يرتقون المرتفعات

والمدينة هنا كهف

على بابه عنكبوت

وفي المدخل علامة.

الصيادون من سلالات الشمس والآفاق

والعنكبوت ينسج بهدوء،

والعلامة تقول: هنا مقبرة التاريخ».

عبَرتْ غيمة الحزن. تجاوزت قاسيون نحو أماكن أخرى. أشارت المرأة كي اصطحب المعطف. رددت بفظاظتي التي لاتطاق: أعتني بنفسك أيتها المرأة الوحيدة.

قالت متجاوزة: هل ستذكرنا وأنت تشوي الأرانب وطيور الحجل؟

هززت رأسي. تثاءبت ابتسامة دخيلة: لاتنسي الوصية. أجهضيه.

ندبَتْ: أخمِّن أنك لاتنوي العودة أيها المجنون!

تمنيت أن أقول: لو كان بودي. غير أنني رشقتها ببسمة هزء.

زعق بوق السيارة زغردات ثلاث، فعاد هبوب الفرح يشيل. حملتُ الحقيبة ووثبت: هيه... وداعاً!!

ـ ألن تقبّلني؟

ـ خذي.. وسفحت شفتيها بقبلة ثأر قديم.

خطفاً رمقت دموعها تنهال فوق وجنتيها: يا للتعيسة! كنت الآن مجنوناً بفرح الرحيل عن مدينة الرياح.

السيارة تطوي الطريق، والرغائب تتيه في النفس كضباب الأودية وهو يتسلق السفوح نحو القمم. خلفي الآن تستلقي المدينة التعبة، خرابة مهجورة كساها الغبار وخيوط العنكبوت.

من خلال زجاج السيارة رحت أستمتع بالأشياء:

السهول، الروابي الصغيرة، السواقي الجافة، ثم شريط الصخور الممتد على طول الأفق الغربي وقد بدا كأن صاعقة قصمته فبان كشاهدة قبر لقاسيون المتأبد.

ستة عشر عاماً من الانتماء إلى تلك المدينة المهجورة. للبشر، والأحداث، والمستقبل. سدرتني غفوة حلمت خلالها بأنني طفل يلعب فوق مروج ربيعية، توَّجتني الفصول ملكاً، وقدمت لي حوريات سلالاً ملأى بالزهر والفرح. وعدتني بشموس لاتغيب وغِلال من قمح وحرية وعدل.

يا للأحلام الربيعية!

هاأنذا أستيقظ، فارّاً من برودة الكهوف، بعيداً عن الخرائب التي هاجمها الحزن والصقور الجبلية الجائعة.

أحلام الطفولة سافرت نحو جزر قصية لاوجود لها، وأنا لسذاجتي لم أرغب أن أكون ملكاً.

كان الصمت عادلاً داخل السيارة، أحسسته منحة سماوية مع هؤلاء الغرباء في الطريق الطويل. رحتُ أسرق تأملاتي بروعة الأشياء الجاثمة في الخارج، ومع نهر الزمن كنت أنعطف بحرية في تيه دمنة النفس.

بالصيد حلمت، وأنا أرى الجبال من خلال الزجاج. تصورتها مليئة بالأرانب وطيور الحجل وأنا أتسلق وراءها وألهث، أفاجئها فتُذعر، أطلق عليها فتتهاوى على جبهة السفوح الوعرة، مكسورة الأجنحة، تتخبط فتلطخ الصخور بالدم، ثم تركن.

أشعر بالتعب فأستلقي في فيء صخرة سامقة، وأنام على الأرض بوداعة طفل وحيد منهك.

في غفلة الصيد فاجأني المطر. راحت قطراته تضرب زجاج

الواجهة. خيوط فضية مائلة تشطب الفضاء، ترهج في أصيل الشمس. سألتْ النفس بمودة سرية: لماذا الخيبة تحت سماء تمنح المطر؟

2

مذ قرأت أول كلمة في سِفر هذا العالم الهائج طوَّقني الحزن. صار التكيف مفقوداً. وخلال مسيرة الأعوام الطويلة التي مرت لم أستطع تفسير حالة الحلول بين نزوعي الفردي الحاد، وبين غوصي في نهر البشر. كنت أحدس بأنني سألتقي بمثالي الضائع بين ملايين مفقودي الهوية عبر الأسلاك والأشراك التي نصبت على هذه الأرض، وغالباً مارغبت الانسحاب إلى طرف قصي، لكن محاولاتي...

اليوم ومدينة أحلامي تخور بالعجز، ما الموقف؟

للأرض رائحة الحريق، والشوارع تبدو مقفرة، ومدينتي التي أحببت دخانها يسيل الدموع. مدينة مقفلة في وجه الفرح، تمطر خيبات على الصغار أمثالي، وليس سهلاً الجواب على: لماذا يشوِّه الرجال الحمقى مدينتي الوردية؟

استمر المطر ينشد أغنية الحزن الممتعة. سألت السائق لو يفتح الراديو، مع أغنية المطر انتشرت غلالة فيروزية بددت صمت المتاهات. قال الحنين: أنا أغنية صيف قديم، هاربة من مزمور داوود. كلمة مفلتة من نشيد سليمان أتيه وحيدة خلف زمن النسيان.

تذكرت الفصل الأول من مسرحية حياتي.

في شعاب مدينتي كنت أرى الإنسان طفلاً ومارداً. وهو في

حالتيه سيد التغيرات. وكنت أتساءل: أي فرق بين النبي والإنسان؟ أليس الإنسان صورة الله على الأرض؟

ومن روابي النفس الغضَّة، كان الجواب يأتي حاسماً. ولفترة اقتنعت بأسطورة النبوة. كان مثالي أكبر مني يتطاول طيفاً مبهماً يسدّ نوافذي. ذات يوم حلمت بأنني صرت بطلاً، وعندما عبرْتُ في تيار نهر البشر المتدفق وسمعت الهتاف والتمجيد، لمستُ خيوط التحول الممتدة بين حماقة البطل وهشاشة النبي.

ذلك الفصل امتد أعواماً، علمني أشياء كثيرة لاتنسى. كان لي فيه أصدقاء وعشيقات وآلام خاصة. أذكر حواراً جرى بيني وبين صبية استهوتني:

ـ هل تأتي الليلة؟

ـ لاأدري.

ـ لماذا؟

ـ ثمة عمل.

ـ بطولي؟

ـ لا.

بتهكم: خلية أخرى؟

بغضب: أنت امرأة جوفاء.

ـ وأنت إله أجوف. قملة في صحراء هذا العالم!

ـ لو تخرسين.

خائبة: سأخرس. لكن أنت ستنسحق يوماً!

ـ.....

وحين أرتجت الباب خلفي بعنف لئلا أصفعها، رنَّ صوتها في رأسي:

ـ قلاع الأحلام الرملية تهدمها الرياح يا طفلي الصغير!!

إثر الحادثة سرتُ في شوارع المدينة، طوَّفت حول كعبتي، وكنت أرتعش من الخوف والوحدة الداخلية.

قلت: أشعر بالصقيع في عظامي!

قالت المدينة: لاتخف سأحميك. منازلي الزاهية سقف حياتك، ودُثُري صوف وطيلسان أخضر.

ـ أرغب بيتاً صغيراً نائياً كُواهُ مفتوحة للشمس والحرية!

قالت المدينة: سيكون لك ماتريد.

ـ أشعر بالوحدة!

قالت بحنو دافئ: أنا أمك وأم الملايين.

ـ لكن المرأة قالت بأنني قملة!

بزهو: بل أنت ملك الفصول، من أجلك ولِدَ الزمن والحقول والأمطار والنجوم. ولأجلك يُصنع التاريخ وتميد الأرض بالثورات.

ـ ثم قالت بأنني أحلم!

همستِ المدينة: في رحمي ينمو مثالُكَ ويوم الوضع سأقدمه لك على وشاح غيمة. يومها سيهمي مطر غزير فوق الزرع، يعمِّر الأرضَ زهوٌ ورقصٌ ومسرّة، وعن الجميع ترحل الظلمة والدم وبؤس السنوات.

عاد الأمان لي. أنهيت طوافي الليلي على الحراس والخلايا. وبحرارة شددت على أيدي أصدقائي الأطفال:

قريباً تتكسر الأصفاد، وبدل الملح والصبار نأكل خبزاً حاراً

من حبوب السهول. نتيه فوق الأرض. نبني بيوتاً للبشر المنبوذين والمشردين ونزرع حدائق الحرية. يزهر العدل مع الشمس ومع الزرع نغني في مواسم الحصاد. المجد للأطفال والمتعبين والجياع. طوبى للفقراء والتائهين. لجميع الفقراء والمعذبين على هذه الأرض.

بذلك هَجَستْ في خاطري مدينةُ الصبوات.

3

ماتزال السيارة تجري، والمطر ينهمر. تحاول مسَّاحتا الزجاج صدّه لكن القطرات تتمرد والسائق يدخن.

قربي راحت ثرثرات عادية تُرمى لإزاحة الملل. ورويداً راح الليل ينتشر كوشاح أسود والسيارة تشق رحم الظلام. يهاجر نشيد سليمان الفيروزي فيُسدل ستار الفصل الأول.

كان عشقي للمدينة قد تحول إلى نوع من الهوس. نسيتُ حب الصبيَّة وهجرتها.

في الفصل الثاني دربتني المدينة على التطهُر من نزواتي الفردية لأهبَها ماتبقى من ثمالة العمر.

كنت أجوس في الدروب الوعرة مبشراً. أتشرد في شتاءات الأيام وأنام مع الجياع والمنبوذين. أغري الأطفال بالشموس الوضيئة، وأعدِهُم بخمرة الميلاد والخبز الأبيض: ستكون لكم مدينة ملألأة. حقول حنطة مخضرّة مد البصر. في قراكم يزهر الحب، وبيادركم ستُصان من الطيور الغريبة، وفي كل مكان لكم أصدقاء حفاة من نسل الأرض التواقة للانفجار. وعلى مدى الآباد ستزدهر الطمأنينة في نفوسكم. السلام والهدوء والفرح لكل طفل. الحب والحرية والقمح لكل إنسان.

وفي أخريات طوافي النبوي، أعود مجهداً إلى كوخي. أستلقي على الفراش وأهجس:

ـ هو ذا العمر يمضي!

ـ أنت رجل خلّاق. تهمس المدينة.

ـ لكنني أخاف السراب!

توسوس: سلام للمبشرين بمدائن الإنسان، بربيع دائم وممالك لن تغرب عنها الشمس والأفراح.

ـ أخاف الجرح!

توسوس المدينة: الفتح قريب. أسراب الجراد سترحل. ستهب الرياح من كل الجهات وتسقط الحواجز والأسلاك. الفرسان قادمون على خيل صهبٍ والزغاريد ستعمر الكون.

وبين الوسوسة والهمس أغفو. نشوتي أحلام أقحوان، وفرحي عرائس جن في هوادج منشورة على مدى الصحارى والمدن.

4

فصل مدهش.

المدينة تتزيا بأبهى الفرح. أنا مع الأطفال نرقص ونزغرد في عرس أمنا. نشدو: جاء الميلاد. جاء فارس التاريخ والفتح فيأأرض اهزجي!

وتميد الدنيا. القيامة والنشور. وفي طول الأرض وعرضها ترتفع المشاعل. الدروب ريحان أخضر، وبشر كالطوفان ينتشرون تحت الريح والمطر، أكفهم صنوج نحاس، وحناجرهم رعد سماوات ظامئة تدوي في يوم الحشر.

وفي ليلة شتائية قارصة، تُقدَّم مفاتيح المدينة لفارس الزمن.

تُزَف مدينتي في عرس استمر سبعة أيام بلياليها، لاأحد يأكل ولايشرب ولاينام إلا الرقص والغناء والزغاريد في عرس مولانا السلطان.

وفي اليوم الثامن يُفصَل الحراس الليليون، فالمدينة الآمنة المفتوحة الأبواب ماعادت بحاجة إليهم، ويقال للمجهدين ارتاحوا، لقد انتهت الحرب.

وفي اليوم التاسع أنام ثلاث سنوات متواصلة.

5

انتهت نشرة الأخبار وهمد المطر قليلاً. أطفأ السائق لفافته ورمى بعقبها من النافذة.

أشعلت لفافة في الصمت الليلي. انعطف الزمن بي ودار. وانهمر حزن كهذا الليل. قالت الكآبة: أنا غجرية سوداء أنصب مضاربي قرب الصخور البركانية، ولأن عشيقي غادرني ولم يعدْ أظل أنتحب حتى مطلع الفجر.

فصل مفجع.

حكاية بلهاء عن مومس أزمنت الزنا. مات بهاؤها في زحمة الأيام السود. امتص الزمن رحيقها فتغضّنت.

مومس عقيم ليس في رحمها مثال، تحنُّ لفارس قديم انتهكها وغاب.

ولأن أرضها بوار وأعزاسها بلا بشر، تحاول أن تلملم لقطاءها المفجوعين لينشدوا لها الفرح.

«من أين يأتي الفرح يا مدينة المجوس؟».

جميع الأطفال ماتوا في زحمة العرس، والذين حلموا بالبيوت الشمسية وقمح السهول يسكنون على ضفاف الشوارع ويعجنون الدموع المقهورة ويقتاتون بالغبار والرماد.

6

في مرفأ الصبيَّة القديمة بتُّ ليلتي. محاربٌ يعود مكسور الرمح مُدمَّى الروح. في شوارع مدينتها سريتُ داخل ليل خافت الأضواء. في يدي حقيبتي وداخل رأسي شظايا الفصول.

قالت النفس: هنا تقطن المرأة التي اصطدمتَ بها ومعها في أزمنة النهوض والفرح، ربما كانت العزاء.

سمعتُ هدير البحر، وصياح النوارس فوق الخلجان. خبَّت الخطوات أكثر غبّ انسكاب المطر. ولجتُ زقاقاً معتماً ثم قرعتُ الباب.

ناح صوت خافت خائف: مَن هناك؟

اقتربت الخطوات من الداخل وعاد الصوت يسأل.

تكسَّر صوتي: القملة!

صرَّ مزلاج الباب ثم انشق وئيداً. تسربت حزمة ضوء. اخترقتُ الحزمة. صرت على أرض الغرفة المضاءة.

امرأة تخطت حدود الثلاثين، مليحة، سماتها أمومية، وفي عينيها حزن وجوع جزائر وحشية لم تُكتشف. كانت سامقة، ملأت حضوري، وفي لحظة كالبرق بددت لي جميع أحزاني القديمة.

كانت مشدوهة وعلى شفتيها بشائر صرخة، وهي تحدق بي، فجأة انبلج الصمت، غار في تحولات الزمن وهمس: أنا جسر

المعجزات بناني إله العجز والدهشة. أمتد من أقمار الحلم حتى رحم الأرض العاقر.

وكأمّ فارقت طفلاً عاقّاً انشبحت على صدري: أحقاً هذا أنت؟

من بين ذراعيها انسللت. ارتميت على الديوان وأشعلت سيجارة.

ـ أأستطيع أن أبيت الليلة هنا؟

رنت نحوي بانكسار عاتب: ماتزال تفتعل الحياد.

قلت بلا مبالاة: لا.. الآن أنا محايد حقيقي.

ـ علّمك الزمن؟

ـ والمدن الخائنة.

وأردفت: أنا جائع.

هيأت المرأة عشاء متواضعاً ومن حقيبتي تناولت بطحة عرق.

ـ وبعد الليلة؟

ـ إلى الجبال.

ـ ماذا هناك؟

ـ صيد.

على المائدة سألتها: لماذا لم تتزوجي؟

ابتسمت باستخفاف: في الصدر لم تعد هناك أحلام. وأشارت إلى صدرها.

مضغْتُ لقيمات وشربت بعض الخمر: ها أنت تعود أخيراً!

ـ امرأتي حُبلى ستضع ولداً.

ـ كيف هي مدينتك؟

ـ لست راغباً بالطفل. مشوّه بالوراثة، وملوّث.

ـ أما تزال المدينةُ كهفَ حياتك؟

ـ الأطفال أغبياء وكذلك النساء. ماعاد باستطاعتي أن أحب أحداً. رجل أجوف كما قلتِ في تلك الليلة.

من جديد انسكب الصمت، وراحت ساعة الطاولة تزيد إيقاعه. كان صمتاً كئيباً، وخارج الغرفة تناغمت زخات المطر مع دقات الساعة.

مرة أخرى خُيل إليّ بأنني أسمع أصوات النوارس وحفيف أجنحتها تحت المطر في سماء حزينة تهاجر نحو مدن خرَّبها طوفان البحر ثم انحسر عنها. قالت النفس: الجبال بعيدة لايصلها الطوفان، والصيد حصاد بقايا الشموس التي أفِلت.

دقت الخمرة الأبواب الموصدة، ثم فتحتها للريح. صارت النفس سفينة منشورة الأشرعة تعبر جزائر الفرح ولم يكن لها جهة. غطّاني الحزن بعباءة شفافة ثم أبحر بي، وارتميت في حضن المرأة أنشج.

7

ها أنذا أعانق عفوية العالم القفر. جميع المدن توارت من الذهن. وحيداً أتطهر فوق هذا التراب المجبول بالمطر. أطير في الهواء وأغني، منحدراً عبر سفوح البراري بين الغابات، واثباً كأرنب بري هارب.

في السماء يتكاثف الغيم، يستر وجه الشمس، وعلى الأرض ترتمي ظلال كئيبة تنفرش فوق الصخور والنفس.

يهطل مطر خفيف، ثم يشق صدرَ السماء خيطٌ يتلوى كالجرح، يعقبه هدير يزلزل الأرض، فأشعر بأنني في موكب القيامة.

تحت المطر والقصف أسير، محتمياً بالأشجار العارية وبأجم السنديان. يعنف المطر، فأركض إلى كنف الصخور، تغزو سمعي أصوات الحجل وألمحها تسفّ فوق المنحدرات فاردة أجنحتها الرمادية باتجاه الأدغال الكثيفة.

يطردني وكفُ الصخور، فأنسلُّ تحت الخيوط المنسكبة مخوّضاً في مروج النمص والشوك. الفرح الوليد ينمو ويتعاظم نمو المطر. أتبلل. تعب وصقيع يتسللان عبر لحمي العاري وتبدأ أولى الرعشات.

أصعد الجبل. ليس ثمة دروب سالكة، أحاول الاحتماء تحت ضلع صخرة مقوّسة، أتقوس على نفسي ملتحماً أكثر بجسد الصخرة لتحميني.

إنه الليل. ليل موحش فوق أرض مقفرة، مزروعة بالتوقعات والفرح الخائف.

صمت ثقيل ضاغط. صمت يودي إلى صمت. حتى إيقاع المطر تحوّل إلى نذير وحشي، إلى إيقاع موسيقي يوحي بالغربة والتوحّد. هذا الصمت الكبير الممتد حتى منافذ الأفق كان الرعب الحقيقي.

أحاول أن أشعل لفافة، لكن الثقاب مبلل فأمضع السيجارة بلذّة مرّة. يزداد تسكاب المطر، فأشعر بأنني مهدد عبر هذا الطوفان الجديد.

تزداد الرعشة فأحس أنني على أبواب التصلب. أحرك أصابع يدي وقدمي داخل جزمة الصيد خوف التشنج. أغرس أسناني في

شفتي السفلى، ثم أثب خطوة إلى الأمام: لم تمتْ بعد.

أتناول البندقية الموكوءة على ضلع الصخرة، وأُدخل نطاقها حول رقبتي فتصير متصالبة مع الظهر. يصرخ الألم والبرد في مجموع جسدي لكن النفس تتمرد.

أنحدر. شبح صغير كالدودة. يتحرك في ليل موحش بحثاً عن ضوء. فوق مروج النمَص القائمة المصقولة كسطح من جليد رحتُ أتزحلق، زاحفاً كحيوان نحو الوديان عبر الظلام الشاسع.

تسامق الظلام، صار غولاً غيَّبني في جوفه. كنت ماأزال أدبّ متئداً كحلزون فوق العشب الحريري خوف السقوط في الهاوية السحيقة.

فجأة أنزلق هاوياً على ظهري، تتجرجر يداي بحثاً عن شيء تعلقان به، فتنسحبان فوق الحصى الناتئ والشوك. يتمزق جلد كفي فأشعر بحرارة الجرح والألم وأنا أمسك جذع نبتة صغيرة. انتهت مروج النمص الملساء، وبدأت أتوكأ فوق أرض محصبة، هاوياً باتجاه ضوء توهّمته. ثم أصدى الصمت مرة أخرى.

خفَّ هطول المطر، لكن ظلاماً أعمق من ظلام المحيطات كان ينهض أمامي الآن. ارتطمت قدمي بصخرة فالتففتُ حولها في شُعب ضيق، صدمتْ ركبتي صخرات صغيرة مسننة فغيرت اتجاهي.

وقفت قليلاً ثم حدّقت في بحر الظلام المخيف.

على مدّ البصر أشباح كالحة كالتماسيح تقوم في وجهي. تجاوزت قسماً منها، لكنها كانت تتوالد من أرحام بعضها البعض صانعة سداً وحشياً لايُقهر.

منذ لحظات انتهى الصيد، وحرب النمص والزحف والأشواك، وهاهي ذي حرب أخرى تقوم.

أنا وحدي بين هذه الضلوع الصلبة البدائية أحاول إنقاذ جلدي. أشباح تسد المنافذ، ممتطية صهوة هذا الليل، وحماقتها، تضرب في أعماق الأرض ممتصة خصوبة التراب، مانعة الجذور من التغلغل، هي ذي تتواثب كوحوشٍ مهتاجة تبغي لحم فريسة صغيرة.

ـ «لن تموت لأنك وحيد».

بغتة أشعر بأنها حربي وأنني عدو مُستهدَف. فيفرغ ذهني من المعادلات. قد تطول المسافة، قد تطول الحرب. ربما يفقد الزمن قيمته مع هذه الوحوش القائمة في أرض الغابات البكر، غير أنك لن تموت بطريقة تلقائية. لاتودّ أن تبني شيئاً فيما بعد، ولن تحلم بعد اليوم بمدن عادلة ومروج خضراء وأطفال بله، مايهمكَ أن تحتفظ بوجودك، بتمردك الخاص خارج هذا الجحيم المتلِف.

هنا في هذا الغاب تنبثق هذه الصخور بتلقائية مريعة، تتوتّد في مملكة الإنسان لأنها الأقوى، وهي ليست أكثر من صخور مجوَّفة حمقاء، نبتت في غياب الصيادين والزراع، لكنها لن تستطيع قتلك.

ـ ولكن هذه الوحوش من أين ولدت؟

ركضتُ بينها فصدمتني. طعنتني في صدري فسقطتُ فوق بندقيتي المعلقة على ظهري. ركضتُ أكثر فشجّت رأسي وجبهتي. على جدرانها سال دمي. فوق شواهدها قرأت حياتي التي تسقط وحياة أحبتي وأصدقائي. تجاوزت قسماً منها فانفغرتْ بوحشية أعظم. أمسكت بالصدر التمساحي الخشن: أيها الجلد الأبله الغاصب إنني أكرهك!! بإصرار حاولت اجتيازها فطعنتني أيضاً. حاولت تسلق صخرة كبيرة فوقعتُ على وجهي، وشعرت بشيء في جسدي يتكسر. نهضت والحمى تترامح في خلاياي، ومن يأسي وجراحي حفزتُ قوةَ وثْبٍ رمتني على سطح صخرة.

حشوتُ بندقيتي وصحتُ بوحشية إنسان يرفض الموت: خذي... ورحت أطلق: خذي أيضاً أيتها الوحوش الملعونة.

وبجنون راح صوت الطلقات يدوي. الأودية والنفس ردّدت الصدى. تسللت الراحة مع الدوي والصدى فشعرت بغبطة انعتاق.

8

في الصباح كنت ما أزال مصدوعاً والمخدة مبللة، وفي الفراش لايوجد أثر لامرأة.

كان ريقي جافاً وفي معدتي جشأ زئبقي، وجسدي ثقيل ومنهك. تحاملت لأفتح النافذة، فجأتني عصابة بيضاء تلف يدي، وإذ نظرت في المرآة لمحت وجهاً غريباً مشطوباً وعينين متورمتين.

بهدوء لملمت أمتعتي المبعثرة. على الأرض لمحت شظايا زجاجية والساعة مطروحة على وجهها تدق بخفوت مسموع.

لأول مرة، أرى الغرفة تدور كأنها الأرض، وألمح صور الأشياء تنفتل بسرعة: السرير، ولوحة الجدار: سفينة كبيرة تتأود مائلة بصواريها وسط لج هائج. الديوان الزهري والمنضدة الصغيرة المحفورة السطح، عارية وسط الغرفة، ثم أنا هذه الموجة المنكسرة على صخور الشواطئ.

9

آه... تلك الأم تزغرد وتبكي في مواسم الصيد، تنتظر عودة الفارس المهاجر، وفي يدها باقة حبق، تطرش البيت بالحوّار

وتنفض الغبار عن صورة ابنها المعلقة على الجدار. أقول لها فيما مضى:

ـ لماذا الحزن؟ نحن في المدن يا أماه نبني مجد الزمن ونهيء الحرية والفرح لجميع أطفال العالم.

فتغرغر بدمعتها: أنت مجدي يا بني. لتكن إرادة الله معكم!

ها... ها... ها... سلاماً أيتها الأمجاد القديمة. سلاماً أيتها الشموس التي كانت وضيئة. سلاماً يا أمي.

وسلاماً لأفراحنا التي انطفأت باكراً.

دمشق 1970

الفهرس

الصيد وحكايا البشر	5
صيف محترق	25
الومض	39
حميمود	49
حالة طلق	65
العكر	77
طقوس للعار	99
القتيل	123
الصخور	135

صدر للمؤلف

• حكايا النورس المهاجر	الطبعة الثالثة	1998	دار ورد دمشق
• الفهد	الطبعة الثالثة	1991	دار الحصاد دمشق
• الومض	الطبعة الثالثة	1998	دار ورد دمشق
• الزمن الموحش	الطبعة الثالثة	1991	دار أمواج بيروت
• الفيضان	الطبعة الثالثة	1980	المؤسسة العربية للدراسات بيروت
• التموجات	الطبعة الثالثة	1980	المؤسسة العربية للدراسات بيروت
• الوعول	الطبعة الثانية	1990	دار الحصاد دمشق
• وليمة لأعشاب البحر	الطبعة السادسة	1998	دار ورد دمشق
• مرايا النار	الطبعة الثانية	1995	دار ورد دمشق
• غسق الآلهة	الطبعة الثانية	1995	دار ورد دمشق
• شموس الغجر	الطبعة الأولى	1997	دار ورد دمشق
• أوراق المنفى	الطبعة الأولى	1993	دار أمواج بيروت
• كبوشي	الطبعة الأولى	1978	دار ابن رشد بيروت